

هوسم

تنساقط الدموع

الجزء الأول



بوزادة سهام

" موسم تساقط الدموع "

تأليف / بوزادة سهام

تصميم غلاف: زهرة عرفة

تذكر أنك قرأت هذا على موقع

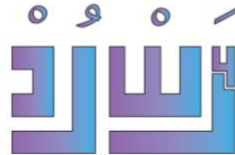
أسرد - Asrud

كتب موقع أسرد

انشر معنا على الموقع وتواصل معنا مباشرة

«» للنشر والإعلان والتواصل معنا اضغط هنا «»

أسرد للنشر الإلكتروني



ASRUD

للنشر الإلكتروني

. عنوان الرواية : موسم تساقط الدموع / الجزء الأول

الكاتبة : بوزادة سهام

في ظل الظروف السيئة التي تعيشها هيام بعد وفاة والدتها قررت البقاء إلى جانبها ومساعدتها كي تتجاوز محنتها ، خاصة أنني قريب منها لدرجة كبيرة فنحن أصدقاء منذ الطفولة .. درسنا معاً ولا زلنا كذلك ، أضف إلى ذلك فأنا جارها أيضاً .

توفيت والدته هيام منذ فترة وجيزة ، ما يقارب الشهر تقريباً .. سمعنا بالخبر المؤلم بينما نحن عائدون من الثانوية فقد كان ذلك أول عام لنا فيها بعد اجتيازنا لشهادة التعليم المتوسط بنجاح .. كان لوفاتها تأثيراً كبيراً على نفسياتي فقد اعتدت وجودها في حياتي منذ الصغر فهي امرأة حنونة كانت تحبني للغاية .. أتذكر أنها يوماً ما قالت لي بأني حينما أكبر سأصبح سند هيام الوحيد ، لست أدري ما تقصده بكلامها ولكن الشيء الوحيد الذي أعلمه أن ابنتها مثل أختي تماماً ولن أسمح بأن يصيبها مكروه مطلقاً .. رحمها الله و أسكنها فسيح جنانه .

بعدما انتقلنا للثانوية لم تعد علاقتي مع هيام كالسابق فوالدها لن يرضى بأن أكلمها مطلقاً قائلاً بأننا قد كبرنا ولم نعد صغاراً .. أكلمها في الثانوية بين الفينة والأخرى بعيداً عن الأنظار خوفاً من أن يشي بي معتوه ما لوالدها فنصبح في ورطة كبيرة .

لم تكن ندرس في نفس الصف بادية الأمر و لكنني شعرت بأنها أحوج لي في هذه الفترة لهذا فقد غيرت الصف من أجلها بداية الفصل الثاني وأصبحت زميلاً لها من جديد .. دخلت إلى القسم حيث كانت هيام شاردة الفكر كأنها في عالم آخر لا أعلم عنه أي شيء .. وفاة والدتها المفاجيء حولها من شخص محب للحياة إلى شخص بائس يائس ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود ..

لاحظت صديقتها فرح و هي تمسك يدها متممة بكلمات لم أستطع سماعها لطول المسافة ولكنني استطعت معرفة نطقها لاسمي من خلال حركة شفثتها لتلفتت هيام إلي مباشرة ..

ابتسمت لها ملوحاً بيدي اليمنى .. اقتربت أكثر منها قائلاً :

" هيام ، كيف حالك ؟ " .

ردت بتعب واضح :

" بخير الحمد لله و أنت ؟ " .

قلت :

" الحمد لله ... " .

شعرت بأنها تريد سؤالي عن مجيئي لقسمها لذا فقد اختصرت الأمر قائلاً دون أن تسألني حتى :

" بالمناسبة لقد غيرت القسم ، سأدرس معك من الآن و صاعداً " .

تلك اللعة التي سيطرت على عينيها فور سماعها كلامي لا يمكنني نسيانها ، فقد نهضت بسرعة من مكانها بسرور قائلة :

" أنت تكذب ، أهذه حقيقة ؟ " .

أجبت بسرعة :

" وهل كذبت عليك يوماً ما ؟ " .

قالت :

" كلا ، ولكن كيف استطعت تغيير القسم في هذه الفترة.. " .

"_ أيتها الحمقاء ، أنتظاهرين بالغباء أم ماذا ؟ أليس مدير الثانوية أبي ويمكنني تغيير القسم متى أردت ؟ " .

ضربت على رأسها بيدها مجيبة :

" بلا ، لقد نسيت .. لقد فرحت بهذا كثيراً .. مرحباً بك .. " .

قلت مماًزحاً :

" لا توجد طاولة هنا ، أظن بأنني سأعود من حيث أتيت .. " .

كان صديقي علاء يدرس هنا أيضاً ولكنني نسيته تماماً ، فقد تفاجأ حين رأي ..

" نضال ، لا تقل لي بأنك ستدرس معي ؟ " .

قلت :

" أتدري ، لقد نسيت أنني أملك صديقاً يدعى علاء .. " .

صافحني علاء مضيفاً :

" لم أتوقع هذا منك ، هيا فلتجلس معي .. " .

قلت :

" ومن كان يجلس معك ؟ " .

"_ لا تسأل .. إنه معتوه للغاية ، الحمد لله لقد غير الثانوية .. " .

نظرت إلى هيام قائلاً :

" جيد ، سأبقى هنا .. لقد وجدت مكانا أجلس فيه .. " .

ردت :

" وكأنك ستغادر .. هيا فلتجلس .. هيا .. " .

ربت علاء على كتفي مضيئا :

" ما علاقتك بهيام ؟ " .

قلت بفخر :

" إنها مثل أختي تماماً .. " .

رد بسخرية :

" مثل أختك ، قل هذا لشخص آخر .. فتاة مثل الوردة تعتبرها أختا لك ؟ ربما أنت مجنون .. إنها جميلة للغاية تصلح لأن تكون .. " .

قاطعت به غضب قائلا :

" إياك و إكمال ما ستقوله ، إياك .. لن أسمح لأحد بالتكلم عنها أفهمت ؟ " .

__ " لا داعي للغضب ، آسف إن أزعجتك .. " .

دخل الأستاذ وبدأ الدوام ، طوال الحصة وأنا أراقب هيام التي كانت خارج نطاق التغطية .. لم تعد كالسابق فقد كانت مجتهدة للغاية أما الآن فلم تعد تهتم لدراساتها مطلقاً وهذا ما قد لاحظته الأستاذ الذي وبخها أمام الجميع مما جعلني أتدخل وأقف في وجه كلماته التي ستجعلها تبكي فهي حساسة للغاية ، كلمة بسيطة قد تتسبب في نوبة بكاء قوية عندها .

" هيام ، مالأمر ؟ ألا تظنين بأنك لا تحترمين الأستاذ مطلقاً " .

قالت :

" آسفة .. " .

رد بصوت عالٍ :

" هذا المكان للدراسة وليس للشرود ، إن كنتِ ترغبين في التأمل في الجدار أو السماء .. رجاء انصرفي .. أصبحت تصرفاتك لا تطاق .. " .

لم أستطع الصمت حينها لذا فقد انفجرت قائلاً :

" لديها ظروفها الخاصة ، يمكنني إخبارك بها لاحقاً .. " .

قال :

" وهل أنت المحامي الخاص بها أم ماذا ؟ " .

قلت :

" أنت جديد هنا ولا تعرف مالذي تمر به لذا أرجو أن لا تفعل شيئاً تندم عليه لاحقاً .. " .

_ " فعلاً !! هيا تعال معي دقيقة .. " .

خرجت مع الأستاذ لأخبره عن وفاة والدته هيام فهو السبب الوحيد الذي يجعلها شاردة طوال الوقت ..

" والله لا أدري مالذي أقوله .. أنا آسف حقاً .. " .

قلت :

" لا بأس .. أردت أن أخبرك كي لا تظلمها فهي تمر بمرحلة حرجة .. " .

وجودي في نفس القسم مع هيام أصبح مفيداً لها للغاية فقد بدأت تتحسن تدريجياً رغم الألم الكبير الذي يسيطر عليها ولكنني استطعت ولو بمقدار صغير التخفيف عنها ..

مرت الأيام ونحن ندرس معاً ، نتبادل أطراف الحديث بين الحصص .. أصبح الرابط الذي يجمعنا قوياً للغاية .. نعم ، إنه رابط الصداقة الأخوية ، هذا المسمى الذي وضعته لعلاقتنا .. صداقة ممزوجة بالأخوة لتعطي خليطاً متجانساً " الصداقة الأخوية " .

إن فقدان الأم صعب للغاية ، لا يمكنني وصف ما شعرت به حينها بكلمة أو جملة فما يعتصر فؤادي أقوى من أن أشرحه ..

لقد فقدت النور الذي يضيء دربي برحيلها عني ، أنا ابنتها الوحيدة التي كانت تناديني بوردي .. موتها المفاجيء غير حياتي كلياً فقد زالت البسمة التي كانت ترافقني أينما ذهبت ، فقد تحولت من عصفور مغرد محب للحياة إلى صخرة صماء لا تشعر بأي شيء .. أرى صورتها في كل مكان ، إنها هنا في المطبخ .. إنها هناك في غرفة الضيوف .. إنها هنا في قلبي .

يحاول والدي تعويض حنان أمي ولكن دون جدوى ، كل الأمور باتت دون معنى .. لا طعم لها ولا لون ، أعود من الثانوية على أمل أن أجدها تنتظرني كالعادة ولكن لا ، لا يمكن أن تعود وهذا ما يحطم فؤادي إلى قطع صغيرة .. توفيت والدتي مرة أما أنا فأموت في اليوم ألف مرة ، كيف للمرء أن يعيش دون أم ؟ كيف له أن يعتاد على الحياة المظلمة الجديدة ؟ كيف له أن يصبح مسؤولاً عن نفسه بعد أن كانت والدته مسؤولة عنه ؟ لقد تغيرت حياتي و أنا لست مستعدة لكل هذا ..

غير نضال القسم من أجلي ، ساعدني ذلك كثيراً فنحن أصدقاء منذ الطفولة .. منذ خرجت من البيت و أنا في سن الرابعة من عمري كي ألعب في الشارع وهو معي ، لا أذكر أننا اختلفنا أو تشاجرنا في يوم من الأيام .. يدافع عني ويقف في وجه الأطفال الأشقياء الذين يحاولون ضربني قائلاً بأنني أخته الجميلة .. لسوء حظي أنني وحيدة والداي ولحسن حظي أن لي أماً أنجبته لي الحياة من رحم الأيام .

نضال شاب وسيم للغاية وذو شخصية قوية ، معظم الفتيات في صفنا معجبات به ولكنه لا يأبه لهن حتى أنه لا يتكلم معهن مطلقاً ..

في مساء يوم الخميس بينما أنا عائدة إلى المنزل بعد انتهاء الدوام التقيت بجديتي والدة أبي وهي متجهة صوب بيتنا ..

" جدتي .. جدتي .. يا جدتي .. انتظري قليلاً .. " .

التفتت نحوي قائلة :

" هيام ، هذه أنتِ .. تعالي بسرعة .. " .

توجهت نحوها بخطوات متسارعة ، قبلت رأسها مضيفة :

" أرجوكِ ، قولي بأنكِ ستمكثين معنا .. " .

ردت وهي تبتسم ماسكة يدي :

" طبعاً ، وهل أستطيع ترك حفيدتي الجميلة مفردها .. أدري أن والدك يظل في العمل وأنتِ بمفردك .. لذا فقد قررت المجيء .. " .

كان الخبر سعيداً للغاية فأنا بحاجة ماسة إليها ، قد أستطيع تفادي أوجاعي وهي قربي ..

دخلنا إلى البيت الذي أصبح يائساً للغاية ، اختفت الحياة التي كانت تدب داخله ..

" والله رائحة والدتك لا تزال عالقة هنا .. " .

نزلت دمة حارة ختمتها بزفير قوي أحر منها ، عانقتني جدتي قائلة :

" هذه هي الحياة يا غاليتي ، سنتعود و سنتستمر الحياة .. لن نتوقف عند موت أحد ما .. اليوم هي وغدا أنا .. " .

صرخت بفرع :

" أرجوكِ ، لا تقولي هذا يا جدتي .. لا تقولي هذا .. " .

ردت :

" لن يحدث شيء لي و إنما أريد قول أن هذه سنة الحياة والموت محتتم علينا جميعا .. "

"_ و إن يكن يا جدتي ، لا تقولي هذا لي رجاء .. أنا لا أحتمل هذا .. "

عانقتني مجددا مضيئة :

" لن أقول هذا مجددا .. أعدك .. "

ثم أردفت :

" هيا فلتغيري ملابسك .. ساعد القهوة أشعر بأن رأسي سينفجر .. "

مسحت الدموع الغزيرة المتساقطة من عيني قائلة :

" حسنا ، سأعود فوراً .. "

"_ الصلاة يا ابنتي الصلاة .. " . قالت هذا وهي تنزع حجابها الأبيض ..

قلت :

" طبعاً .. حفظك الله يا جدتي .. "

بعد أن غيرت ملابسني و أدبت صلاتي عدت إلى المطبخ حيث كانت جدتي تعد القهوة .. صحيح أنها مسنة ولكنها نشيطة للغاية حتى تجعلني أتساءل أحياناً من المسن مناً .

بينما نحن جالستين عاد والدي من العمل الذي انقطع عنه فترة بعد وفاة والدي المفاجيء ..

" الجنة هنا .. أهلا ، أهلا .. "

عانق والدي الجنة كما ينعتها فقبل رأسها و سألها عن حالها ليرتشف القهوة معنا ..

" بني ، لقد قررت أن أقيم معكم .. "

صرخت من فرحي :

" فعلاً !! "

"_ نعم ، لذا أرجو منك يا بني لو تحضر لي أغراضي غداً .. يعز علي أن أترككما وحيدين .. "

رد والدي :

" كما تشائين يا أمي .. شكرا جزيلا ، نحن بحاجة لك حقاً .. "

وهكذا أصبحت جدتي تقيم معنا لتضيء البيت من جديد ولكن النور لم يكن قويا كالسابق غير أنني فرحت به للغاية و استطعت بفضلته تجاوز القليل من الألم الذي ينهش قلبي .

مرت الأيام و الشهور لتحل العطلة الصيفية ، قرر والدي أخذنا إلى ولاية أخرى غير ولايتنا عسى أن أغير الجو قليلاً ، ربما تشرق الشمس في قلبي من جديد ! مكثنا هناك مدة أسبوع .. في كل مساء نخرج معاً إلى الشاطئ .. في كل موجة تأتي أتذكر والدتي رحمها الله فقد كانت تعشق هذا المنظر كثيراً ، تسقط الدموع من عيني فأدخل إلى البحر كي أخفيها .. لم يكن الأمر سهلاً مطلقاً ولكنني أردت تجاوزه ، أردت أن أجعل إيماني قوياً و أَرْضَى بقدر الله وقضائه .. أردت أن أكون الولد الصالح لها الذي يدعو الله أن يرحمها و يغفر لها ذنوبها في كل صلاة بل في كل وقت ..

__ " هيام ، هيا تعالي لقد أحضرت المثلجات .. " .

ذهبت إلى والدي الذي يغمرني بدلاله منذ صغري لغاية الآن ، ليزيد من حبه ودلاله لي بعد رحيل الغالية ..

__ " شكرا جزيلا يا أبي .. إنه منعش للغاية .. " .

ردت جدتي :

" فعلا ، إنه لذيذ .. " .

قلت بحزن شديد سد شهيتي :

" كم كانت والدتي تحبه .. " .

ثم أردفت بقلب مؤمن :

" رحمها الله و أسكنها فسيح جنانه .. " .

أسندني والدي على كتفه مضيئا :

" أنا هنا وجدتك هنا أيضاً .. نحن معك ولن نتركك مطلقاً .. " .

أجبت برضا :

" أدرك ذلك .. أطال الله عمركما .. " .

انتهى الأسبوع بسرعة وعدنا إلى البيت من جديد .. مع الوقت بدأت أعتاد على حياتي الجديدة لتمر العطلة الصيفية كاملة وأعود إلى الدراسة من جديد .. لم أر نضال طوال العطلة ، ربما لم يكن هنا ولكنه أتى قبل بداية السنة الدراسية بأسبوع

فقد صادفته في الشارع حيث كنت ذاهبة إلى المحلات لشراء ملابس جديدة رفقة صديقتي فرح .

__ " هيام ، انظري إنه نضال .. " .

أجبت بفرح :

" أين هو ؟ أين .. " .

__ " على يمينك .. " .

نظرت إلى يميني فتفاجأت به قادماً نحوي ..

" هيام ، كيف حالك ؟ " .

قلت :

" الحمد لله وأنت ؟ " .

__ " بخير الحمد لله .. لم أرك منذ مدة .. " .

أجبت بانزعاج :

" أنت الذي اختفيت عن الأنظار فجأة .. أين ذهبت ؟ " .

ضحك مجيئاً :

" أنت تعلمين أنني لا أقضي العطلة الصيفية في البيت .. أذهب إلى أي مكان ما عدا البيت .. " .

قلت :

" لا بأس .. " .

__ " أين أنت ذاهبة ؟ " .

__ " سأشتري ملابس جديدة كالعادة .. " .

نظر إلى شعري الحريري الطويل مضيئاً :

" أظن أنه من الأجدر لك لو تشتري حجاباً ، لم تعودى فتاة صغيرة يا هيام .. لقد أصبحت امرأة .. " .

__ " كلا ، لم أكبر بعد سأشتري شيئاً يناسبني .. " .

قال بنبرة مرحة ممزوجة بالجدية :

" سأنتظرك هنا ، إن لم تشتري حجاباً فإني لن أتكلم معك مجدداً .. " .

أمسكت يد فرح وسحبته نحوي قائلة و أنا أغادر :

" لا يهمني أمرك ، لن أشتري الحجاب عمداً حتى أرتاح منك .. وداعاً " .

كانت نظراته تلحقني فقد كنت ألتفت خلفي لأرى تعبيرات وجهه الأسمر ..

حينما دقت العطلة الصيفية الأجراس قررت الذهاب إلى بيت جدي المقيم في ولاية أخرى ولم أعد إلى المنزل إلا بعد أن بقي أسبوع للدخول المدرسي .. لم ألتقي بهيام منذ ثلاث أشهر ولكن الصدفة جمعتنا حينما التقينا في الشارع ، تحدثنا قليلاً و طلبت منها شراء حجاب ولكنها لم ترض وهذا الأمر لا يعجبني مطلقاً فقد أصبحت كبيرة كفاية ولا أَرْضى بأن تكون أختي متبرجة دون حجاب ، قد يتعجب البعض من علاقتنا و لكننا ترعرعنا معا ونظرا لعدم امتلاكها إخوة في صغرها فقد استلمت الدور من طرف والدتها ووالدتي .. فمئذ وعيت وأنا أسمع منهما " نضال ، اهتم بأختك " .

كانت والدتي صديقة والدة هيام المقربة ، كانت علاقتها ببعض رائعة للغاية ، لا يمكن لأي واحدة منهما إكمال النهار دون الاطمئنان على الأخرى ومن فرط الحب الذي يجمعهما لم

تستطع والدتي احتمال فكرة موتها .. في كل مرة أدخل إلى البيت أجد والدتي غارقة في حزن عميق يمطر دموعاً ... لا أظن بأنها سوف تنساها بسهولة .

التقيت مع علاء الذي أصبح صديقي المقرب فقد تغيرت كل الأمور بعد انتقالنا إلى الثانوية حتى الأصدقاء القدامى لم يعودوا أصدقائي ، فعلاء لم يكن مقرباً مني للغاية ولكن انتقالي إلى صفه غير الكثير من الأشياء .

" لقد اقترب الدخول المدرسي .. كم أنا متحمس .. " .

أجبتة بنبرة تدل على أنني كشفته :

" متحمس ؟ أدرك تماماً فيم تفكر .. لا تقترب منها خيراً لك .. " .

قال :

" تبا لك ولتفكيرك .. من يفكر في فتاتك المعقدة .. لا أنظر إليها مطلقاً .. متحمس للدراسة لا غير .. " .

ضحكت مضيفا :

" لقد صدقتك .. مارأيك لو نذهب إلى مطعم ما نشترى البيتزا ؟ "

" فكرة جيدة ، هيا نذهب .. " .

اشتريت لوالدتي معي وعدت إلى البيت فقد نال التعب مني ..

" أمي لقد عدت .. " .

ردت من المطبخ :

" تعال بني .. " .

قلت :

" أين فؤاد و خولة ؟ " .

_ " خرجا مع والدك بعد أن ضجرا .. " .

_ " تفضلي ، لقد اشتريت لك البيتزا أدرك أنك تحبينها للغاية .. " .

قلت هذا وأنا أضع علبة البيتزا فوق الطاولة الموجودة وسط المطبخ .

توجهت إلى غرفة الاستقبال حيث استلقيت فوق الأريكة وأخذت أعبث بهاتفني ..

مرت الأيام وعدنا إلى الدراسة ، تفاجأت حينها بإطلالة هيام الجديدة ، لقد ارتدت الحجاب فعلاً .. كان الأمر صادماً بالنسبة لي فقد رفضت الفكرة حينما التقيت بها ولكنها ارتدته فعلاً .. كم هي جميلة بالحجاب .. شعرت بفرحة عظيمة تغمرني فقد سمعت مني و جعلتني أفخر بها .. ما أجمل الحجاب !

لم أستطع منع نفسي من الذهاب إليها ، بعد أن رأيتها واقفة في ساحة الثانوية ..

" صباح الخير ، أرى أنك ارتديت الحجاب فعلاً .. " .

قالت :

" صباح الورد ، نعم لقد أعجبتني كثيراً لذا فقد قررت ارتدائه .. " .

_ " مبارك لك ، لقد أصبحت جميلة هكذا ، لقد كنت تشبهين جارنا المختل .. " .

ابتسمت قائلة :

" أترى بأنني كنت بشعة ؟ " .

أومأت برأسي نافية قائلاً :

" كلا ، ولكن بالحجاب أنت أجمل .. " .

شعرت بأنها فرحة للغاية ، إن الحجاب يزيد المرأة جمالا .. فرحت لها و للخطوة الجريئة التي اتخذتها .. الآن فقط يمكننا بدء الموسم الدراسي .

أنا من التلاميذ المتفوقين والمحبوبين من طرف الأساتذة .. سرقت الأضواء من هيام فور انتقالها إلى صفها ، لا يمكنني القول بأنها أقل مني ذكاءاً ولكنني أفضل منها بقليل .

تحسنت حالة هيام كثيراً هذا ما قد لاحظته بعد انتقال جدتها للعيش معها ، فقد أصبحت تبتسم كما كانت سابقاً كأن جدتها أحيت قلبها الذابل من جديد .. صحيح أنه لا أحد يستطيع أخذ مكان الأم ولكن وجود الجدة يعني الكثير .

في حصة الرياضة كانت تعتذر عن أداء التمارين الرياضية معظم الوقت ولكن هذه المرة قد شاركتنا بكل حماس ، ربما ستعود من جديد تلك الفتاة التي تشرق الشمس كلما ابتسمت ! ربما ستعود هيام من جديد !

" نضال ، أنا هنا .. مرر الكرة .. " .

مررت الكرة إلى علاء الذي كان يجري بسرعة فائقة و سجل هدف التقدم ..

كم أعشق كرة القدم ، أخرج في كل ركلة الطاقة السلبية المحتجزة داخلي فتنطلق كأنها نسر جارح .. تارة تدخل الشباك وتهزها وتارة أخرى تصطدم بالعارضة فأعيد الكرة مرة ثانية ، الثالثة ورابعة حتى أحرز الهدف الذي يجعلني أفكر في احتراف كرة القدم بجدية فأصبح كرياض محرز لاعب منتخبنا الوطني الجزائري .

انتهت الحصة بسرعة فغيرت ملابسني وجلست في الساحة أفكر في مستقبلي الذي أرغب في جعله حافلاً بالنجاحات .. جلس علاء بالقرب مني قائلاً :

" كم أنت بارع يا صديقي .. " .

أجبت مجاملاً :

" وأنت كذلك ، نحن نشكل ثنائياً رائعاً .. " .

" ربما نصبح لاعبين محترفين في المستقبل ونلعب في نفس الفريق .. " .

ضحكت مضيقاً :

" كلا ، لدي حلم آخر أرغب في جعله حقيقة .. " .

__ " فعلاً ! ما هذا الحلم ؟ " .

قلت :

" سأجعله سراً بيني وبين نفسي حتى أحققه .. " .

__ " وفقك الله يا صديقي .. " .

فحصت الساحة فحصاً دقيقاً بعيني بحثاً عن هيام ولكنني لم أراها ، لاحظ علاء ذلك فقال مماًزحاً :

" أظن بأنها تغير ملابسها ، ستأتي الآن لا تقلق .. " .

__ "من تقصد؟" .

قال :

" هيام ومن غيرها ؟ ألا تبحث عنها ؟ " .

__ " كلا ، من أخبرك بأنني أبحث عنها .. أنا أنظر فحسب .. " .

رد بثقة :

" والله يا نضال لا أظن بأنك تعتبرها أختا لك .. الأمر أكبر من هذا .. " .

أجبت بانزعاج واضح :

" هل أنت مجنون .. أخبرتك سابقاً بأنها مثل أختي تماماً ، الجميع يدرك هذا إلا أنت تفسر الأمور كما تحب .. " .

رأيته ينظر إلى شخص ما بتمعن ثم قال :

" لقد أتت أختك .. أبشر .. " ..

كانت هيام القادمة فعلاً .. تحمل بين يديها شيئاً ، اقتربت أكثر و أكثر حتى وصلت ..

" نضال أنت هنا .. لقد أحضرت لك هذا العصير معي ، أدرك تماماً بأنك لا تستغني عنه و لم ألاحظ بأنك قد اشتريت منه اليوم لذا فقد أحضرته لك معي .. " .

أمسكت علبة العصير متشكراً إياها ولكن علاء لم يستطع الصمت حينها فانفجر قائلاً :

" وتعرفان بعضكما البعض لهذه الدرجة .. كيف عرفت أنه لم يشتري عصيراً اليوم ؟ " .

قلت بانزعاج :

" وما دخلك أنت يا علاء ، فلتهتم بشؤونك فحسب .. " .

ردت هيام بعد أن احمر وجهها بشدة :

" لقد لاحظت بأنه لم يدخل المتجر صباحاً لذا فمن الواضح أنه لم يشتري العصير .. لقد كنت وراءه تماماً ، لذا أدركت ذلك .. " .

__ " لا داعي لتبرير موقفك يا هيام ، أنا وأنت نعرف بعضنا البعض كثيراً وهذا يكفي .. شكراً جزيلاً .. " .

ردت بخجل :

" عفواً .. سأذهب الآن .. " .

فور مغادرة هيام ضربت علاء على ظهره قائلاً :

" ألا تستطيع التزام الصمت لدقائق .. تبا لك و للسانك السليط .. " .

_" والله لا يمكنني التزام الصمت في هذه المواقف ، تعرفني جيداً .. أنت تكذب وأنا من سيكشف كذبك .. " .

قلت بحيرة :

" أكذب ؟ " .

_" نعم ، سنرى هذا مع مرور الأيام .. " .

كان علاء مصراً على وجود علاقة عاطفية تجمعني بهيام فهو لا يصدق بأنني أعتبرها أختاً لي منذ الصغر .. أمره عجيب للغاية ، كيف يمكن للمرء أن يقع في حب من يعتبرها أخته ؟ .

لم يحضر أستاذ العلوم هذا اليوم لذا فقد اجتمعت رفقة مجموعة من زملائي حيث أخذنا نتبادل أطراف الحديث فهذا يتحدث عن الفتاة المعجب بها وذاك المهووس بنادي برشلونة يتحدث عنها بفخر .. كانت الفتيات تجتمعن حول مجموعة من الطاولات فقد شكلن دائرة ، ربما تلعبن لعبة ما أو ما شابه !!

أبدت اعتراضاتي على ارتداء الحجاب ولكنني أعجبت بالفكرة فقد كبرت حقاً وصار من الضروري أن أتجلبب .. كان نضال متفاجئاً للغاية فهو لم يضع في باله أنني سأرتديه بعد أن طلب هو ذلك ولكن الرغبة الجامحة التي راودتني جعلتني أشتري حجاباً أسود اللون جميل الشكل جعلني أبدو كالأميرة .

كان لوجود جدتي أثراً إيجابياً على حياتي حيث عدت كما كنت في السابق بعد أن جعلتني أبتسم من جديد فصارت بمقام أُمِّي التي فقدتها .. لا يمكن لأحد أن يأخذ مكان والدتي رحمها الله و لكن وجود جدتي يكفي بالغرض ، فقد غمرتني بحنانها منذ اللحظة التي دخلت فيها منزلنا ..

بعد حصة الرياضة لم يأتِ أستاذ العلوم لذا فقد قررت الفتيات إجراء لعبة تدعى " جراءة أو صراحة " .. اجتمعنا جميعاً ، لاحظت نظرات نضال التي توحى بالكثير ، ربما هو متعجب من الدائرة الضخمة التي شكلناها ...

" هيا فلنبداً اللعب يا فتيات .. " .

ردت مريم :

" ممنوع التراجع .. " .

بدأنا اللعب وبعد فترة أتى دوري فسألتني سعاد قائلة :
" جرأة أم صراحة ؟ " .

قلت بثقة :

" جرأة طبعا ، أنا جريئة للغاية .. " .

ضحكت سعاد بخبث مضيفة :

" سنرى ذلك الآن يا هيام .. حسنا ، فلتذهبي إلى نضال الآن وقولي له كلمة تتكون
من أربع حروف .. " .

قلت بضجر :

" ما هذه السخافة ، ليس نضال .. وما هذه الكلمة التي تتكون من أربع حروف .. "

.

" أنت ذكية لا داعي للتظاهر بالغباء .. قولي له أنا أحبك .. لا مجال للتراجع هيا
.. " .

تأففت باز عاج مضيفة :

" إنه أخي كيف يمكنني قول ذلك له .. " .

ردت مريم :

" في بداية اللعبة قلت بأنه لا مجال للتراجع ، أنت من اخترت الجرأة لذا هيا أرنا
شجاعتك التي تزعمينها .. " .

ما هذه الورطة التي وقعت فيها يا إلهي .. نهضت من مكاني متجهة صوب نضال
...

" نضال ، أرغب في قول شيء لك .. " .

نهض من مكانه هو الآخر كي أتحدث معه بأريحية ..

" خيرا ، هل حدث معك أمر ما ؟ " .

قلت :

" كلا ، أريد قول .. " .

رد مشجعا :

" ماذا ؟ قولي لا داعي للتردد .. " .

__ "أنا أحبك .. " .

اصفر وجه نضال للغاية ولم يجد ما يقوله فالأمر غريب بالنسبة له ، انفجرت الفتيات بالضحك فأخبرته باللعبة موضحة :

" الغبية طلبت مني قول ذلك لك إنها مجرد لعبة لا غير .. " .
قال :

"تبا لك ، لقد أفزعتني .. " .

__ " وهل الأمر مخيف لهذه الدرجة ؟ " .

رد بمرح :

" مخيف للغاية .. ما هذه اللعبة الغريبة ؟ لو طلبن منك الذهاب لشخص آخر هل توافقين ؟ " .

__ " كلا ، وهل أنا سخيفة لهذه الدرجة .. أنت أخي و أدرك تماما بأنك لن تصدقني .. " .

رد ضاحكا :

" والله كاد قلبي أن يتوقف من الصدمة .. " .

أجبت ممازحة :

" لن أحبك كن مطمئنا " .

" أتمنى ذلك يا فتاة .. هيا عودي إلى صديقاتك فهن يراقبنا .. " .

قلت :

" حسنا ، أنا ذاهبة .. حتى صديقك علاء يراقبنا ، يا لسخافته إنه مزعج للغاية .. كيف صادفته لا أدري .. " .

__ " وأنا أرى بأن فرح مزعجة أيضا ، كيف تعرفتما على بعض يا ترى ؟ " .

أجبت بقليل من الانزعاج :

" فرح خط أحمر .. إنها أختي وليست مجرد صديقة .. " .

ثم أردفت :

" أنا ذاهبة أيها المغرور .. " .

عدت إلى الفتيات اللاتي قتلهن الفضول فانفجرت مريم قائلة :

" مالذي كان يقوله لك ؟ " .

قلت :

" ومالذي سيقوله ؟ إنه أخي يا جماعة .. أرجوكن توقفن عن هذه السخافة .. " .

أيدتني فرح قائلة :

" ليس الأمر كما تعتقدن ، غيرن الموضوع هيا .. " .

ردت سعاد :

" حسنا ، فلنكمل اللعب " .

الأمر الإيجابي الذي جعلني أتنفس في سلام هو وجود جدتي ، فبمجرد وجودها في البيت بعد عودتي من الثانوية يريحني للغاية .. أن تفتح لي الباب منادية لي " أيتها الطيبية " أمر يزيد من تفاؤلي وتمسكي بالحياة .. في كل مرة أعود إلى البيت تجذبني رائحة الطعام الزكية التي تعدها ، فوالدي متيم بطبخها حتى أنه كان يمدحها في حضور والدتي قائلاً :

" أكل والدتي هو الأفضل على الإطلاق " .

لم تكن تنزعج من مدحه الدائم لها بل تبتسم له قائلة بأنني سأكبر يوماً ما و أصبح أمدحها مثلما يمدح والدته .. كانت رحمها الله طيبة خلقة ، تحب الجميع .. تحترم الصغير والكبير .. إن جلست مع مريض جعلت من كلامها دواء يحفزه للتغلب على مرضه و إن احتاجها أحد لبث النداء .. لم تكن أنانية ولا حسودة بل كانت كريمة يجري الإيثار في عروقها .

في كل مرة يخبرني والدي بأنني شبه أُمي ، دائماً يردد كلامه و كأنها لم تمت ، أنا أراها فيك .. لقد تركت شبيهة لها وغادرتني ..

حزن والدي لم ينته مطلقاً ، ففي كل مرة أدخل غرفته أجده يحمل صورتها ويتحدث إليها .. إنه يتظاهر بالتماسك وداخله منهار .. إنه يبتسم وداخله جحيم يحترق .

على طاولة العشاء اجتمعنا .. سمعنا طرقات خفيفة على الباب ..

" من هذا الذي يأتي في هذا الوقت ؟ " .

أجاب والدي جدتي :

" سوف أرى .. " .

لقد كانت خالة نضال غير المرتبطة .. لاحظت بأنها تحوم حول والدي بعد وفاة أُمي ، ربما تحاول لفت انتباهه وأخذة مني ! كلا ، لن أسمح بهذا مطلقاً ..

" لقد حضرت هذه الوجبة بنفسى .. أرجو أن تنال إعجابك .. " .
رد والدي :

" شكرا جزيلا .. " .

أخذ والدي الطبق وعاد إلى المطبخ مجددا أما أنا فقد سيطر الشرود على كل حواسي .. ماذا لو استطاعت أخذ والدي .. ليست لطيفة ولا أحبها منذ الصغر .. لا يمكن أن يحدث الذي يدور في مخيلتي .. قطع شرودي صوت والدي الذي ناداني فعدت لأكمل وجبتي ..

" هيام ، ما بك ؟ " .

_" لا شيء .. أنا متعبة قليلا لا غير .. " .

ردت جدتي مشيرة بسبابتها إلى الطبق الذي وضعه والدي فوق الطاولة :
" من التي أحضرت هذا ؟ "

قال :

" جارتنا .. "

أجبت بانزعاج واضح :

" إنها مزعجة .. منذ الطفولة أكرهها .. لقد كانت تطردنا من البيت أنا ونضال .. "

ضحك والدي مضيفاً :

" كنت صغيرة ومشاكسة أما الآن فقد أصبحت فتاة واعية .. لا تشغلي بالك بالتفاهات ، هيا أكملّي وجبتك .. " .

قالت جدتي :

" والدك محق ، أكملّي وجبتك كي تصبحي امرأة .. " .

ابتسمت قائلة :

" حسنا .. " .

ربما هذا من صنع مخيلتي لا غير ، ولكن لدي إحساس كبير بأنها ترغب في الزواج من والدي .. أتمنى أن لا يصبح هذا الإحساس حقيقة .. أتمنى ذلك فعلاً ..

مرت الأيام ونحن على تلك الحال فتوالت الشهور ومر العام ، مر عام على وفاة والدتي رحمها الله ، إنها تعيش هنا في قلبي .. لن تفارق الحياة مادامت تعيش في فؤادي حتى أدفن بالقرب منها .

مرضت جدتي مرضاً شديداً استدعى أخذها إلى المستشفى ومكوئها هناك لأيام .. لقد انهارت أعصابي حينها و لم أستطع حبس دموعي في سجن الصبر مطلقاً فأنا أخشى أن ترحل هي الأخرى .. أصلي و أدعو في كل صلاة أن يطيل الله عمرها وأن لا يحرمني منها فقد اتخذتها أما ثانية لي بعد وفاة والدتي ..

انقطعت عن الأكل تماماً رغم محاولات والدي غير المجدية ..

" هيام ، من أجلي يا ابنتي هيا .. ستعود جدتك قريباً .. " .

أجبت باكياً :

" كلا ، أنت تكذب .. قل الصدق يا أبي .. قل الصدق .. " .

"_ إنها بخير ، ستخرج من المشفى بعد يوم أو يومين .. " .

قلت :

" صدقا ! " .

"_ والله إنها الحقيقة .. هيا فلنأكلي شيئاً الآن و إلا فإنها ستوبخك كثيراً فور عودتها .. ألا ترين لقد أصبحت نحيفة للغاية ؟ .. " .

أجبت بحزن :

" و إن يكن فلتوبخني و تفعل ما تشاء ولكن لا تغادرني كما فعلت والدتي .. " .

عانقتي والدي قائلاً :

" ستعود بإذن الله .. وأنا هنا معك .. " .

حاولت تناول القليل من الفواكه بعد إلحاح والدي .. عندما رفع اذان العشاء ركضت بسرعة إلى غرفتي كي أصلي وأدعو بالشفاء العاجل لجدتي الغالية ..

بعدما صليت ودعوت بقلب مؤمن .. حملت هاتفي و سجلت دخولي إلى " الفيسبوك " .. أرسل نضال لي رسالة محتواها ما يلي :

" هيام ، أرجو أن تكوني بخير .. أنا قلق للغاية .. أرجو أن تخبريني عن حالة جدتك الصحية فور قراءتك لرسالتي .. " .

قمت بالرد عليه قائلة :

" يقول والدي بأنها بخير وستخرج بعد يوم أو يومين .. " .

قرأ رسالتي بسرعة ورد مباشرة :

" الحمد لله .. أتمنى أن تشفى بسرعة .. وأنت كيف حالك ؟ " .

أجبت :

" إن شاء الله .. أنا بخير الحمد لله وأنت .. " .

_ " أنا أعرفك جيداً ، لم تتناول شيئا صحيح ؟ " .

ثم أضاف :

" ربما ألح والدك عليك فأسكت بطنك بقليل من الفواكه ! " .

ابتسمت بعدما قرأت رسالته .. كيف له أن يعرفني بهذه الطريقة ، إنه يفهمني للغاية .. قبل أن أتكلم حتى ..

" أظن بأنك مشعوذ يا نضال .. كيف عرفت هذا ؟ " .

رد :

" أعرفك جيداً يا فتاة .. المهم اهتمي بنفسك جيداً ولا تبكي كثيراً ، ستتحسن جدتك بإذن الله فأنا أدعو لها في كل صلاة .. " .

ثم أضاف :

" ستأتي والدتي وخالتي غدا لرؤيتك .. إنهما قلقتان عليك كثيراً " .

قلت :

" خالتك ! ومالذي تريده مني ؟ " .

_ " تريد الاطمئنان عليك لا غير .. " .

أجبت :

" مرحباً بهما .. " .

رد :

" وأنا ؟ هل ترحبين بي أيضاً .. " .

قلت :

" طبعاً .. في كل وقت يا أخي .. " .

أضفت :

" أنا أشم رائحة والدتي رحمها الله في أمك يا نضال .. إنها تشبهها كثيرا .. " .

قال :

" نعم ، معكِ حق .. ربما تصير كأُمك يوماً ما ! " .

__ " دعني أُنم قليلا وكفاك ثرثرة .. تصبح على خير .. " .

رد مرسلا ملصقات ضاحكة :

" وأنتِ من أهل الخير أيتها المشاكسة .. " .

وجود نضال في حياتي أمر رائع للغاية ، لا أستطيع تخيل حياتي دونه حتى .. إنه أخ رائع للغاية ..

بعد مرور عام على وفاة والدته هيام تلك المرأة الطيبة , مرضت جدتها .. فمكثت في المستشفى تاركة هيام تتخبط في محيط الفقدان .. لم أستطع تركها بمفردها فأصبحت أراسلها يوميا ، أخفف عنها قليلا فقد قست عليها الحياة كثيرا وإن كنت أعرفها حق المعرفة فإنها ستحرم نفسها من الطعام لحين عودة جدتها .. كم الحياة قاسية .

أخبرت هيام بزيارة والدتي وخالتي لها .. وبالفعل في صبيحة اليوم التالي ذهبت والدتي ولكن بمفردها فقد أصيبت خالتي بصداق رهيب منعها من الخروج ..

" نضال فلتشتري لي القليل من الفواكه و العصير كي أذهب الآن .. " .

قلت مبتسما :

" و المكسرات لهيام .. " .

ردت والدتي :

" أنت تحبها للغاية .. أظن بأنك تفضلها على خولة .. " .

قلت :

" ليس الأمر كذلك ولكنك تعلمين جيدا أنها كأختي تماما .. فمنذ الطفولة ونحن معاً .. " .

ضحكت مضيفة :

" كأختك نعم .. هيا اذهب لا تتأخر .. " .

__ " حاضر ، أمرك يا أماه .. " .

كانت علاقتي بهيام تثير الشك في نفوس الجميع ، ولكنني لا أكثرث لهم مطلقا ..
ربما صداقة أو أخوة أو ما شابه ، المهم أنها مهمة بالنسبة لي للغاية .
ذهبت إلى المحل لشراء الأغراض التي أوصتني بها أُمي بالإضافة إلى المكسرات
التي تعشقها هيام وعدت بسرعة البرق إلى المنزل ..
أمسكت الهاتف و أرسلت رسالة لهيام :
"إن والدتي قادمة لخطبتك لي أرجو أن لا ترفضني .. " .
انتظرت ردها و الضحك كاد أن يقتلني .. لاحظت والدتي ضحكي كالمجنون فقالت
:
" مابك ؟ هل أحد ما يدغدغ عقلك ؟ " .
قلت :
" إنها نكتة لا غير .. " .
قرأت الرسالة أخيرا .. تأخرت في الرد نوعا ما فأرسلت رسالة أخرى ..
" الصمت يعني القبول .. " .
ردت :
" يا لمزاحك السخيف .. هل هي قادمة الآن ؟ " .
قلت :
" نعم و أنا معها .. " .
_ " ألن تأتي خالتك ؟ " .
قلت :
" كلا ، والدتي فقط .. " .
_ " هذا أفضل .. " .
لم تكن هيام تحب خالتي مطلقا وذلك منذ الطفولة .. إن خالتي امرأة تبلغ الثلاثين
من عمرها لم تتزوج بعد ولم يأتها الشخص المناسب لذا فهي تقيم عندنا بعد وفاة
جدي وجدتي ..
قلت :
" إن والدتي قادمة الآن .. نتكلم لاحقا .. وداعا .. " .

أوصلت والدتي إلى بيت هيام وعدت إلى البيت مباشرة ، كانت الحرارة مرتفعة للغاية حتى أنني توقعت وقوع عصافير مشوية من شدة حرها ..

رن هاتفي ، نظرت إليه فكان علاء المتصل ..

" نضال ، ألن تأتي إلى المقهى ؟ " .

قلت :

" وفي هذا الحر ؟ هل جننت ؟ " .

قال :

" تعال أيها الجبان .. أنسيت أمر المباراة ؟ " .

وضعت يدي على رأسي مضيفاً :

" والله نسيت أمرها تماماً .. سوف آتي حالا " .

خرجت من البيت مسرعاً متجها صوب المقهى حيث وجدته مكتظا بالناس لحسن حظي أن علاء حجز لي مقعدا بالقرب منه ..

" علاء ، لقد أتيت .. " .

التفت نحوي قائلاً :

" هيا فلتجلس .. ستبدأ المباراة الآن .. " .

ربت على كتفه قائلاً :

" وحجزت لي مقعدا .. أنت رائع يا صديقي .. " .

__ " اليوم ستكون المباراة تاريخية ، كم أنا متشوق .. " .

قلت بحماس :

" أنا الأكثر حماسا يا رجل .. " .

رد علاء ضاحكاً :

" لهذا نسيت أمر المباراة .. بدأ العد التنازلي .. " .

بدأت المباراة وبدأ الصراخ يعلو في المقهى ، الكثير من الأصوات تملأ المكان حتى أنني اندمجت معهم وأخذت أصرخ مثلهم كلما اقترب مهاجم الفريق الآخر من مرمانا .

مر الشوط الأول بالتعادل السلبي ، لم يعجبنا الأمر مطلقا لذا فقد انتهزنا الوقت الذي بين الشوطيين في التناقش حول الأخطاء التي ارتكبتها اللاعبين ..

" لا بأس ، سوف نسجل في الشوط الثاني بإذن الله .. " .

رد علاء :

" بحول الله .. " .

بدأ الشوط الثاني فكانت الحيوية والنشاط واضحة على اللاعبين فلم تمر ربع ساعة على بدأ اللعب حتى سُجل الهدف الأول .. صرخ المعلق قائلاً :

" الهدف الأول للفريق الوطني .. هؤلاء هم أبطالنا ، انتظرنا الهدف طويلاً والحمد لله .. انتظرنا الهدف وأتى بقدّم المبدع رياض محرز .. بوركت جهودكم .. " .

بعد الهدف الأول ازداد الحماس عند اللاعبين حتى أنني شعرت أنهم يستنشقونه بدل الهواء فأضافوا الهدف الثاني لتنتهي المباراة فعلت الهتافات في الملعب معلنة الاحتفال الكبير بالفوز العظيم .. الروح الوطنية التي تجري في عروق المعلق حفيظ دراجي تجعلني أحب كرة القدم أكثر فقد ختم تعليقه للمباراة قائلاً :

" هذه هي الجزائر التي تنتصر .. هذه هي الجزائر التي يجري حبها في دماننا .. هؤلاء هم محاربي الصحراء الذين أدخلوا البهجة إلى قلوبنا .. شكرا وألف شكر لكم ... الجزائر فخورة بكم .. " .

نظرت إلى علاء قائلاً :

" الحمد لله .. هذا هو الفوز الذي ينعش القلب في حر الصيف .. " .

ضحك مجيباً :

" والله معك حق .. سنقيم مباراة بيننا وبين أبناء الحي المجاور مساء .. ما رأيك ؟ "

__ " وهل يمكنني الرفض يا رجل .. سوف نعلمهم الكرة .. " .

رد بثقة :

" هذا الأمر مفروغ منه .. أين نذهب ؟ " .

قلت :

" أنا جائع للغاية .. فلنعد للبيت ولنلتقي مساء " .

__ " حسنا ، كما تشاء .. " .

ودعت علاء وعدت إلى المنزل .. كانت والدتي بالداخل فقد عادت من عند هيام ..
" أراك هنا .. لقد عدت مبكراً .. " .

قالت بحزن :

" أجل .. والله رائحة ياسمين لازالت هناك .. "

والدة هيام رحمها الله تدعى ياسمين ، رأيت الحزن يسيطر عليها .. سألتها قائلاً :
" وهل جدتها بخير ؟ و هيام كيف حالها ؟ " .

_" ستخرج من المشفى غدا إن شاء الله ولكن هيام ليست على ما يرام .. " .
أجبت بفرع :

" ما بها ؟ خيراً .. " .

قالت :

" وكيف ستكون المسكينة .. فقدت والدتها وجدتها مريضة .. الأمر ليس سهلاً ..
" .

_" مسكينة .. أتمنى أن تشفى جدتها قريباً .. " .
ثم أردفت قائلاً :

" أمي ، فلتذهبي لزيارتها بين الفينة و الأخرى .. " .
قالت :

" نعم .. " .

قطعت حديثنا خالتي قائلة :

" إنها بحاجة لامرأة في حياتها .. جدتها لن تفي بالغرض .. " .
قلت بحيرة :

"مالذي تقصدينه؟"

قالت :

" من الضروري أن يتزوج والدها مجدداً .. " .
ردت والدتي :

" لن يرضى بالزواج من جديد .. إنه يحب ياسمين للغاية ولن يدخل امرأة أخرى حياته بعد موتها .. "

قلت :

" ولن تقبل هيام بهذا .. "

ردت خالتي :

" تلك المزعة لا يعجبها كل شيء .. إنها مشاكسة منذ الطفولة .. "

ردت والدتي بغضب :

" بل أنت المشاكسة .. هيام رائعة ، لقد أحسنت ياسمين تربيته .. "

قلت :

" عصافير بطني تزقزق .. هذه حياتهم وهم أحرار فيها .. لا داعي لأن تفكري فيهم يا خالتي .. "

خالتي لا تحب هيام مطلقاً وهذا الأمر يزعجني للغاية .. أظن بأنها ترغب في الزواج من والدها ولكن لن أسمح بهذا لأنني أدرك تماماً أن خالتي ستجعلها تكره العيش في منزلها ..

" نضال ، هيا بني .. سنتناول وجبة الغذاء .. "

قلت :

" و أين والدي ؟ "

"_ لن يأتي الآن .. "

ثم أخذت تنادي :

" خولة ، فؤاد .. تعالوا هيا .. "

فور وصول خولة وفؤاد شرعنا في تناول الطعام بكل تلذذ فوالدتي تجيد الطبخ للغاية والحمد لله .

في صباح اليوم التالي استيقظت على أمل عودة جدتي .. أدت صلاتي و حضرت القهوة التي يحبها والدي كثيراً ..

"_ صباحك عسل يا أبي .. كيف أنت ؟ "

عانقني قائلاً :

" صباحك ورد يا غاليتي .. بخير الحمد لله وأنت ؟ هل نمت جيداً ؟ "

__ "بخير الحمد لله .. هل تظن أن جدتي ستعود اليوم ؟ " .

قال :

" ربما اليوم أو غدا لا أدري يا هيام .. رائحة القهوة تخترق أنفي إنها ساخنة للغاية .. " .

قلت :

" نعم ، لقد حضرتها الآن .. أتمنى أن تعود جدتي اليوم لقد طال انتظاري .. " .

__ " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. ستعود إن شاء الله .. ستعود .. " .

رن هاتف والدي بينما نحن نرتشف القهوة ، كان عمي المتصل .. هذا ما قد فهمته منه حينما أجاب :

" أهلا عبد الرؤوف .. بخير الحمد لله .. والله لا أدري ربما تخرج اليوم أو غداً .. طبعاً مرحباً بكم جميعاً .. " .

ختم والدي المكالمة قائلاً :

" حالتها ليست حرجة لا داعي للقلق يا أخي .. سأوافيك بالأخبار الطيبة .. " .

قال فور انتهائه من المكالمة :

" سوف يأتي عمك وزوجته اليوم مساءً بحول الله .. " .

فرحت كثيراً بهذا الخبر فزوجة عمي امرأة طيبة للغاية وتحبني كأنني ابنتها .. كما أن عمي شبه أبي وهو الأخ الوحيد له .

كانت جدتي تقيم مع عمي عبد الرؤوف ولكن بعد وفاة والدتي قررت البقاء معنا فقلبها الطيب لم يسمح لها بتركنا لمفردنا ..

أجبت بفرح :

" حقاً ! هذا الخبر رائع يا أبي .. " .

أمسك بيدي مضيئاً :

" سأغادر الآن .. فور حضور عمك اتصلي بي .. " .

__ " حسناً يا والدي .. اهتم بنفسك جيداً .. " .

هذا الخبر الجميل جعلني سعيدة للغاية فعمي يقيم في ولاية أخرى بعيدة عنا للغاية .. ولا يأتي إلينا إلا نادراً بعد أن كان يقيم هنا ولكنه انتقل لظروف معينة ..

بينما أنا مشغولة في تنظيف البيت تذكرت ما قاله لي نضال في الليلة السابقة ..
ستأتي خالته ووالدته لرؤيتي ..

" أتمنى أن لا تأتي خالة نضال .. تباً ، إنها ليست لطيفة مطلقاً .. " .

في تمام الساعة العاشرة طُرق الباب .. لا بد من أنها الخالة آسيا أم نضال ..
فتحت الباب على مصراعيه بعد أن رأيتها من ثقبه :
" مرحباً ، نورت البيت يا خالة .. " .

غيرت زاوية نظري عنها بحثاً عن أختها التي لا تشبهها مطلقاً فهي تملك من
الصفات السيئة الكثير عكسها تماماً ..
وكانها فهمتني من نظرة فقالت :

" لم تأت أختي معي ، إنها تعاني من الصداع .. " .

فرحت كثيراً لعدم مجيئها فقلت بسرور :

" تفضلي بالدخول رجاءاً .. " .

دخلت الخالة آسيا إلى غرفة الاستقبال حيث تبادلنا أطراف الحديث الطويل الذي لا
ينتهي .. كنا مقربتين من بعضنا للغاية وبعد وفاة والدتي رحمها الله باتت علاقتنا
ببعض أقوى من السابق بكثير ..

" بالمناسبة لقد أرسل لك نضال هذه المكسرات .. " .

ابتسمت قائلة :

" نضال .. أوصلي له شكري من فضلك .. " .

__ " إنه يهتم لأمرك كثيراً ، أظن بأنك ستكونين زوجة ابني المستقبلية .. " .

أجبت بخجل :

" إنه كأخي لا غير .. " .

قاطعتني قائلة :

" والله على حد علمي فإن لنضال أختاً واحدة وهي خولة .. " .

قلت بمرح :

" بلا ، هنالك أخرى تدعى هيام .. " .

بدأت بالضحك مضيفة :

" والله أنت تشبهين ياسمين كثيراً .. إنها أكثر من أخت بالنسبة لي .. " .
حاولت تغيير الموضوع بعدما جلس الحزن على الأريكة معنا فقلت :
" أين هي خولة ؟ لو أحضرتها معك .. " .
_ " إنها تلعب في الخارج دعينا منها .. إنها مشاكسة ولن تدعنا نتحدث بأريحية .. " .
..
أردفت :
" و فؤاد أين هو ؟ " .
قالت :
" يلعب مع أصدقائه .. " .
ثم أضافت :
" أين والدك ؟ هل ذهب للعمل ؟ " .
قلت :
" بلا ، إن عمله شاق للغاية يأتي متعباً .. " .
والدي يعمل بناءً وهو يمنحني كل شيء أريده و أتمناه و الحمد لله ..
قالت :
" فعلاً ، كان الله في عونك .. إنه مخلص في عمله للغاية وهذا ما يجعل زوجي يحترمه " .
ابتسمت مجيبة :
" ووالدي يحبه للغاية .. " .
ثم أردفت :
" لقد انهمكت في الحديث ولم أحضر القهوة .. سأعود حالاً .. " .
وقبل أن أنهض أمسكت بيدي قائلة :
" لا داعي .. سأذهب الآن ولكنني سأعود مرة أخرى .. " .
قلت :
" فلتعودي رجاءاً أنا أشتم رائحة والدتي فيكِ .. " .

عانقتها بحرارة فأضافت :

" لقد انقطعت عنا منذ فترة ، أتمنى أن تأتي إلينا بين الفينة و الأخرى .. " .

__ " سأتي بإذن الله .. " .

ثم أردفت :

" سأوصلك إلى البيت .. " .

أوصلت الخالة آسيا إلى بيتها القريب منا ومن ثم عدت وكي أمل بعودة جدتي وحضور عمي عبد الرؤوف وعائلته.

" سلمت يداك يا أمي ، أنتِ رقم واحد في إعداد الطعام .. " .

تنحنت خالتي قائلة :

" وأنا يا ناكر الجميل ، أنسيت أنني أجيد الطبخ أيضاً ؟ " .

رد فؤاد :

" ولكن والدتي أفضل منك بكثير .. " .

أضافت خولة :

" أنا أحب خالتي كثيراً .. " .

فؤاد يبلغ من العمر عشر سنوات أما خولة فهي في السابعة من عمرها ..إنهما صغيرين للغاية .

قلت :

" لو رأيتِ المباراة يا أمي .. إنها في غاية الروعة .. " .

__ " وأنت مهووس بكرة القدم ، ربما تصوير لاعبا مشهورا يوماً ما ! " .

ضحكت مضيفا :

" كلا ، لا أرغب في ذلك مطلقاً .. ربما أحصل على منحة دراسية و أسافر لأحد الدول الأوروبية لإكمال دراستي هناك .. " .

ردت خالتي :

" و ما خطب جامعات الجزائر ؟ لم لا تكمل دراستك هنا بالقرب منا ؟ .. " .

قلت :

" مجرد تفكير سطحي لا غير .. " .

ردت أمي :

" إن كان في الأمر خيراً فإنني أتمنى من الله أن يحققه .. " .

قلت :

" إن شاء الله يا أمي .. سأصعد إلى غرفتي الآن .. هل تريدون شيئاً ؟ " .

رد فؤاد :

" أريد اللعب بهاتفك قليلاً .. " .

"_ و لم في هاتفي بالضبط ؟ فلتذهب إلى حاسوبك و افعل ما تشاء .. سأنام قليلاً
أشعر بالتعب .. " .

ردت أمي :

" حسناً ، نوم الصحة .. " .

صعدت إلى غرفتي ، ألقيت بثقل جسمي فوق السرير .. أمسكت بهاتفني و سجلت
دخولي إلى حسابي في الفيسبوك .. كانت هيام نشطة أيضاً ولكنها لم ترسل لي أي
رسالة ..

" ما الأمر ؟ لم لا تتكلمين معي ؟ " .

مرت نصف ساعة على إرسالتي تلك الرسالة ولكنها لم تجب بعد .. ظننت بأنها
منزعجة مني لسبب ما .. ولكنها أزالَت تلك الغيمة السوداء عن تفكيري حينما ردت
:

" أنا مشغولة يا نضال .. سيأتي عمي وعائلته مساءً .. " .

قلت :

" عمك عبد الرؤوف ؟ " .

ردت بسرعة :

" نعم هو .. كم أنا سعيدة ، ربما تعود جدتي اليوم أيضاً .. " .

"_ إن شاء الله أتمنى ذلك .. هل تناولت وجبة الغذاء ؟ " .

قالت :

" ليس بعد .. " .

أجبت :

" يا صاحبة الرأس الخشبي ، أتريدين أن أضربك أم ماذا ؟ هيا أسرعى فلتتناولي وجبتك ومن ثم أكملني ما بدأت به .. " .

قالت :

" سأذهب لا داعي للغضب " .

__ " بسرعة والآن .. لا أريد أن يتكرر هذا مجددا .. " .

أرسلت لي ملصقا ضاحكاً ثم أضافت :

" حاضر يا أخي الشقي .. سأعود لاحقاً .. وداعاً .. " .

__ " فلتأكلي جيداً كي تسمني فأنت أنحف من أختي خولة .. " .

ردت :

" لست نحيفة لهذه الدرجة ، سوف ترى بأنني سأصبح كالبالون فور عودة جدتي .. "

__ " هيا لا تضيعي الوقت فلتأكلي وجبتك بسرعة .. " .

ردت :

" حسناً ، أنا ذاهبة .. وداعاً .. " .

كان اهتمامي بها غير طبيعي فأنا أحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة عنها ..
اختفت النقطة الخضراء فأدركت بأنها فعلت ما طلبته منها .

من الجهة الأخرى علاء الذي جعل اليوم مخصصاً لفوز الفريق الوطني ، فقد ملأ حسابه الشخصي بصور اللاعبين والكثير من الأشياء الأخرى .. حينما مللت من كل ما يحدث سجلت خروجي و أغضمت عيني و سبحت في محيط النوم الهادئ الذي لم أستيقظ منه إلا عندما رفع أذان العصر ...

فور استيقاظي توجهت إلى دورة المياه حيث توضأت و عدت إلى غرفتي لتأدية صلاتي ..

نزلت إلى الطابق السفلي فوجدت خالتي و فؤاد وخولة في غرفة المعيشة ..

" مساء الخير .. " .

ردت خالتي :

" مساء النور ، لقد تأخرت في النوم هذه المرة " .

__ " فعلاً ، والله لم أشعر بنفسي إلا عندما سمعت الأذان .. " .

ثم أردفت :

" أين والدتي ؟ وهل أتى أبي ؟ " .

رد فؤاد :

" إنهما في غرفتهما .. " .

"_ هيا ، القهوة في المطبخ .. " .

أجبت خالتي :

" حسنا ، سأذهب الآن .. " .

بعدما ارتشفت القهوة قررت الخروج للتسكع قليلاً فتمسكت بي خولة قائلة بإلحاح :

" خذني معك أرجوك يا أخي .. " .

أضاف فؤاد :

" وأنا أيضاً ، لقد مللت هنا .. خذنا معك لطفاً .. " .

نظرت إلى خالتي قائلاً :

" أخبري والدتي بأنهما معي .. " .

ردت :

" حسنا ، استمتعوا قدر الإمكان .. " .

مررت بالقرب من منزل هيام فوجدت شاباً يقف على مقربة من الباب ، في بادئ الأمر أثار في نفسي الشك والخوف فهيام بمفردها على حد علمي لأن والدها لا يأتي مبكراً لذا فقد طرقت كل الأفكار السلبية مخيلتي ..

" فؤاد ، خولة .. انتظرا هنا قليلاً .. " .

توجهت صوب ذلك الشاب الذي أثار في نفسي الشك ، قائلاً :

" من أنت يا هذا ؟ وماذا تفعله هنا ؟ " .

قال بتعجب :

" هل أنت تتكلم معي ؟ " .

قلت بانزعاج :

" وهل يوجد غيرك هنا ؟ ماذا تفعله ؟ " .

ضحك ثم أضاف :

" فلتبتعد من هنا لا أريد اللعب مع الصغار .. "

صرخت قائلاً :

" من الصغير يا هذا ... ابتعد عن هذا المنزل وإلا .. "

تأفأف قائلاً :

" وإلا ماذا ؟ ما بك يا ولد وما دخلك ؟ إنه بيت عمي و لا شأن لك .. "

مالذي قاله ؟ تبا ، لا شك من أنه ابن عم هيام ..

" هل أنت ابن عم هيام ؟ "

قال :

" نعم يا فهميم .. "

أجبت بخجل :

" أعتذر منك ، ظننت أنك أحد المنحرفين وهيام بمفردها لذا فقد انتابني الخوف .. "

.

ابتسم مضيقاً :

" أقدر لك هذا ، أنت شجاع للغاية بالرغم من صغرك .. "

" لست صغيراً .. أنا في السابعة عشر من عمري .. "

رد مماًزحاً :

" و أنا في الرابع والعشرين من عمري يا صغيري .. "

ثم أردف :

" أنا أيهم وأنت ؟ "

قلت :

" أنا نضال .. "

صرخ فؤاد في هذه اللحظة :

" نضال ، فلنذهب يا أخي .. "

نظرت إلى أيهم قائلاً :

" أكرر أسفي .. وداعا .. " .

ما هذا الموقف المخرج الذي وقعت فيه بسببك يا هيام .. لقد أخبرتني بأن عمها قادم ولكنني لم أدرك بأنه يملك ابنا أكبر منا بسبع سنوات ..

بعد رحيل الخالة آسيا توجهت إلى المطبخ حيث حضرت وجبة الغذاء ، أصبحت أجيد الطبخ نوعاً ما فرحيل والدتي عني علمني المسؤولية والكثير من الأشياء .. كنت مشغولة طوال الوقت بتنظيف المنزل ومختلف التحضيرات حيث لم ألحظ الرسالة التي أرسلها لي نضال في وقتها ولكنني أخبرته بانشغالي وبقدوم عمي وعائلته لاحقاً .

يملك عمي ابنا أكبر مني يدعى أيهم و بنتا في نفس عمري تدعى ألماس و أيوب آخر العنقود .

حينما رفع آذان العصر سمعت طرقة خفيفا على الباب ركضت بسرعة كي أفتحه على مصراعيه فكل همي حينها كان رؤية عمي أو جدتي التي تنير البيت بعودتها من المشفى .

" عمي .. مرحبا بكم .. " .

ارتيميت في حضن عمي فنزلت دمعة حارة لم أستطع السيطرة عليها .

" هيام يا ابنة أخي ، كيف حالك ؟ " .

قلت :

" أصبحت بخير بعد رؤيتك .. " .

عانقت زوجة عمي التي فتحت ذراعيها :

" زوجة عمي .. لقد اشتقت لك .. " .

_" أنا الأكثر اشتياقاً والله .. " .

قبلت ألماس و أيوب واكتفيت بمصافحة أيهم ..

" تفضلوا بالدخول ..نورتم البيت .. " .

دخلنا إلى غرفة الاستقبال فسألني عمي عن والدي قائلاً :

" أين والدك ؟ " .

أمسكت هاتفي كي أتصل به قائلة :

" سأتصل به الآن فقد أوصاني بذلك قبل خروجه من البيت .. " .

قال :

" ربما هو مشغول .. سيأتي فور انتهائه من العمل .. " .

رد أيهم :

" صحيح أخبريني ، متى ستخرج جدتي من المستشفى ؟ " .

قلت :

" ربما غداً .. " .

اتصلت بالوالدي وأخبرته بقدوم عمي فأخبرني بأنه سيكون في المنزل بعد ربع ساعة تقريباً .

" سيأتي والدي بعد قليل .. سأحضر القهوة .. " .

ردت زوجة عمي :

" لقد كبرت بسرعة يا هيام .. سأساعدك .. " .

قاطعتها ألماس :

" بل أنا من سيساعدها يا أمي .. " .

أجبت معترضة :

" كلا ، لا يمكن .. لقد كانت مسافة الطريق طويلة للغاية ومن الواضح أن التعب قد نال منكم .. سأعود فوراً .. " .

توجهت إلى المطبخ فلحق بي أيهم قائلاً :

" هل لي بكأس ماء رجاء ؟ " .

قلت :

" طبعاً .. لا شك من أنكم عطشى كم أنا غبية .. " .

ضحك مضيئاً :

" وأنا الذي ظننت أن ابنة عمي فتاة ناضجة .. " .

__ " بلا ، أنا واعية .. " .

ناولته كأس الماء مضيئة :

" سأحضر العصير الآن .. " .

فتحت الثلاجة حيث كان العصير باردا للغاية سكبته في الكؤوس وعدت إلى غرفة الاستقبال ..

" ابنة عمي الواعية ، شكرا لك .. " .

أجبت أيهم مبتسمة :

" العفو .. إنه بارد للغاية .. " .

عدت إلى المطبخ حيث أعددت القهوة .. في ذلك الوقت عاد والدي من العمل ..

" عبد الرؤوف ، أهلا يا أخي .. " .

ركضت بسرعة على أمل عودة جدتي رفقة ولكنها لم تكن معه .. لاحظ الجميع خيبة الأمل التي سيطرت على ملامحي فسبقني والدي القول ..

" غدا يا هيام ستعود جدتك إن شاء الله .. لقد ذهبت إلى المشفى و أخبروني بذلك .. "

أجبت بسعادة :

" حقا ! " .

_" والله هذه الحقيقة .. ستعود غدا صباحاً بحول الله تعالى .. "

فرحت كثيرا بهذا الخبر السعيد ، ستعود جدتي أخيرا .. هذه الأيام القليلة التي قضتها وهي بعيدة عني شعرت بأنها عام أو أكثر ..

ردت ألماس :

" ألن تعود جدتي معنا إلى المنزل ؟ " .

أجابتها زوجة عمي :

" كلا يا ألماس ، ألا ترين بأن هيام بحاجة إليها أكثر منا .. " .

أضاف عمي :

" أمك معها حق يا ابنتي .. ستبقى هنا وحين نشأق إليها نأتي لزيارتها أو تأتي هي مع عمك وهيام .. " .

فرحت أكثر حين سمعت هذا الكلام ، فليس من العدل أن تعود جدتي معهم بعد أن أصبحت عالمي .

" أين القهوة يا هيام ؟ لقد اخترقت أنفي عند دخولي البيت .. " .

قلت ببسمة :

" نعم يا أبي ، سأحضرها الآن .. " .

أحضرت القهوة وعدت إلى غرفة الاستقبال التي كانت تعج بأحاديثهم .. كان اشتياق أبي لعمي واضحاً للغاية فمر الوقت وهما يرويان قصصهما التي لا تنتهي مطلقاً .. توجهت أنا وزوجة عمي وألماس إلى المطبخ حيث جلسنا هنالك ، قررت زوجة عمي تحضير وجبة العشاء بينما نتبادل أطراف الحديث .

شعر أيهم بالملل داخل المنزل فقرر الخروج ولكن نضال فاجأه فهذا ما قد فهمته منه حين عاد ..

" هيام ، من ذلك الفتى ؟ " .

أجبت بحيرة :

" أي فتى ؟ " .

" يدعى نضال ، لقد فاجأني للغاية فقد أتى مباشرة وأخذ يحقق معي فور رؤيته لي وأنا أقف عند الباب .. " .

قلت :

" ومالذي قاله لك ؟ " .

ضحك مجيباً :

" لم يكن يعلم بأنني ابن عمك .. كان خائفا عليك .. " .

شعرت بالخجل قليلا ولكنني أجبته :

" إنه جارنا ومثل أخي .. أنت لا تعرفه ولكن أمك و ألماس يعرفانه جيدا .. " .

ردت ألماس :

" نضال ، أنا أعرفه إنه يعتبر هيام كأخته تماما .. " .

أيدتها زوجة عمي :

" أجل ، منذ صغرهما وهما يلعبان معا وكما أن ياسمين رحمها الله صديقة آسيا المقربة أي أم نضال .. " .

فهم أيهم علاقة نضال بي فقال :

" أمر لطيف ، إنه رائع لقد أعجبني .. " .

قلت :

" نعم ، إنه لطيف للغاية .. " .

شعرت بالإحراج مما فعلته لهذا الشاب الذي انتابني الشك حينما رأيته و لكن مالذي كان بوسعي فعله فخوفي عليها أكبر من كل شيء .

أمسكت بيد خولة قائلاً :

" لقد عدت .. فلنذهب لتناول المثلجات هيا .. "

رد فؤاد فرحاً :

" هيا بنا ، لا تخبر أُمي بهذا .. "

قلت :

" أيها المشاكس لقد نسيت أمرك .. لن نتناول المثلجات .. "

ردت خولة بانزعاج :

" أنا لست مريضة يمكنني تناول المثلجات ، نضال أرجوك اشتر لي واحدة فقط .. "

__ " كلا ، فلنشتر شيئا آخر .. "

دخلنا إلى الدكان حيث اشترت لهما مختلف الحلويات و عدنا أدرأنا ..

" لا أريد العودة إلى البيت الآن .. "

أيدت خولة فؤاد قائلة :

" و أنا أيضاً لا أريد العودة .. "

__ " فلنذهب إلى الحديقة .. "

قفز فؤاد مضيفاً :

" فلنذهب هيا .. "

جلست فوق أحد الكراسي الموجودة في الحديقة بينما كانا يلعبان ، أمسكت هاتفي كي أرسل رسالة إلى هيام ولكنها سبقتنني ..

" أنت أحمق ، لقد أخبرتك بأن عمي وعائلته قادمون اليوم .. لقد أخبرني أيهم بما حدث .. "

قلت :

"وما أدراني بأنه ابن عمك ؟ لم أراه سابقا .. "

"_ نعم ، لقد كان يعيش مع جده وجدته لا بأس ولكن تصرفك هذا قد نال إعجابي .. " .

قلت :

" لا بأس ، لقد تعرضت للإحراج بسببك أيتها الحمقاء .. " .

"_ نتحدث لاحقاً أيها الأخ المسؤول .. " .

أجبت :

" وداعاً .. اهتمي بنفسك جيداً .. " .

وضعت الهاتف في جيبي و نظرت إلى الشقيين وهما يركضان خلف بعضهما البعض ..

" خولة انتبهي لا أريد أن تسقطي أرضاً .. " .

ردت :

" لن أسقط .. " .

بعد مرور ساعة عدنا إلى المنزل فقد نال التعب منهما بسبب الركض المتواصل ..

" لقد عدتم .. " .

أجبت خالتي :

" نعم وسأخرج بعد قليل .. " .

توجهت إلى المطبخ لشرب الماء ، رن هاتفي فكان علاء المتصل ..

" ما الأمر ؟ " .

"_ أنا بالقرب من الملعب هيا تعال .. " .

قلت :

" هل أتى الجميع ؟ " .

"_ نعم ، هيا أسرع .. " .

غيرت ملابسني بسرعة وخرجت من أجل المباراة التي سنقيمها ..

وصلت إلى الملعب ، كان علاء والبقية بانتظاري ..

" ها أنت ذا .. أين كنت ؟ " .

_" في البيت أين سأكون .. هل حضر الجميع ؟ " .

قالوا بلا ، فبدأنا اللعب بحماس شديد .

صوت الصراخ ملاً الأرجاء فهذا يطلب من زميله تمرير الكرة وذاك يطلب تسديدها والآخر يعاتب صديقه على تضييع الهدف ، كرة القدم رائعة للغاية تجعلني أشعر بتدفق الدم في عروقي ، مع كل حبة عرق تنزل يزداد حماسي فأنتقل كالغزال مسرعاً فأحرز هدف التقدم .

مر الوقت وانتهى الشوط الثاني بفوزنا ، لم تكن مباراة سهلة ولكننا نجحنا والحمد لله .

صرخ مروان قائلاً :

" لقد فوزنا يا جماعة .. نحن الرقم واحد في لعب الكرة .. " .

رد فوزي بفخر :

" والله نحن رقم واحد .. " .

أيدهما فتحي :

" نحن الأفضل .. " .

أما أنا وعلاء فقد اكتفينا بشرب الماء بعد أن نال العطش منا ..

" نضال ، كانت مباراة رائعة يا صديقي .. " .

_" نعم ، رائعة فعلاً .. " .

عدت إلى المنزل بعد التشويق الذي عشته ، كانت الروائح الزكية تسبح في المكان ، استحمت و غيرت ملابسني ومن ثم توجهت إلى المطبخ حيث كان الجميع هناك ..

" أبي ، لم أرك منذ أمس .. " .

قال :

" الأعمال يا بني لا تدعني أجلس كالبشر .. " .

ردت أمي :

" يبدو عليك الإرهاق ، مالذي فعلته ؟ " .

أجابت خالتي :

" كرة القدم يا أختي ، ألا ترين بأن وجهه أصبح أحمر من الركض ! " .

ضحك والدي مجيباً :

" كم كنت أعشق كرة القدم في صغري حتى أنني تمنيت لو أصبح لاعبا محترفا ولكن قدر الله وما شاء فعل .. " ..

أجبت بحماس :

" إنها رائعة ، لقد كانت مباراة اليوم الأجل .. أنا جائع للغاية .. "

ردت أمي :

" سينضج الطعام بعد قليل .. صبراً يا بني .. "

ثم أردفت :

" أصوات كثيرة تصدر من بيت هيام ، هل عادت جدتها ؟ "

_" كلا ، ليس بعد ربما غدا .. عمها وعائلته هنا .. "

رد والدي :

" جيد ، لابد من أنها سعيدة بوجودهم .. "

أجابت خالتي :

" تلك المشاكسة ، لا أظن بأنها تفرح لوجود أي شخص في حياتها .. تريد أن تبقى مع والدها فحسب .. "

_" يا خالتي ، ما هي مشكلتك معها ؟ في كل مرة تنعتينها بالمشاكسة .. "

قالت :

" هي التي لا تحبني .. "

ضجرت والدتي من كلامها فردت :

" لماذا تضعين رأسك مع رأس فتاة في سن ابنتك .. دعي الفتاة وشأنها .. "

_" متى سينضج الطعام أنا جائع للغاية ؟ "

ردت :

" لقد نضج .. انتظروا لحظة .. "

بعد انتهاءنا من تناول الوجبة ، جلست مع والدي في غرفة المعيشة ، كان والدي رجلاً محباً للعمل كثيراً حتى أنه قد قام بشراء محل تجاري هذه الفترة ..

" اسمع يا نضال ، أود منك إدارة المتجر في العطلة .. "

أجبت بدهشة :

" أنا ؟ ولكن .. " .

"_ ولكن ماذا ؟ يجب عليك تحمل القليل من المسؤولية منذ صغرك وليس بالعمل الشاق يا بني .. " .

قلت :

" كما تريد يا أبي .. " .

انضمت والدتي إلينا ، حاملة بين يديها الشاي و المكسرات ..

" سلمت يدك يا أمي .. " .

"_ أريد المكسرات .. " .

ناولت خولة المكسرات فسألت عن فؤاد فأجابت والدتي :

" لقد ذهب مع خالته كي ينام .. ما هو قرارك يا نضال ، هل وافقت على ما قاله لك والدك ؟ " .

"_ موافق ، لا ضرر في ذلك مطلقاً .. " .

رد والدي بفخر :

" لقد كبرت و أصبحت رجلاً .. أنت تجعلني فخوراً بك للغاية .. العمل في العطلة فقط ، حينما يبدأ الدوام المدرسي ينتهي العمل وتبدأ الدراسة .. " .

"_ كما تشاء يا أبي .. " .

ثم أردفت :

" سأذهب للنوم ، أنا أشعر بالتعب بعد المباراة .. تصبحون على خير .. " .

ردت أمي :

" و أنت من أهل الخير .. " .

أردف والدي :

" أحلام سعيدة .. " .

صعدت إلى غرفتي مباشرة ، أحكمت إغلاق الباب واستلقيت فوق سريري .. كنت متعباً للغاية لذا فقد نمت بسرعة .

حضرت زوجة عمي وجبة عشاء رائعة للغاية ، لو كانت جدتي معنا لاكتملت الفرحة ..

"ألماس ساعديني في وضع الصحون ..".

قلت :

" أنا سأساعدك ..".

ردت زوجة عمي بمرح :

" لقد أصبحت مسؤولة ، يمكن أن تصبحي عروسا في أي لحظة ..".

قلت بخجل :

" ليس الآن ، لا أزال أدرس ..".

_" وأين الضرر في أن تتزوجي وتكملي دراستك في بيت زوجك ؟".

ردت ألماس :

" سأتزوج و أكمل دراستي في بيت زوجي يا أمي .".

_" إن كان رجلا متفهما أين المشكلة .. يمكنك الزواج بمن ترغبين ، لن أقف في وجهك يا ألماس ..".

كانت زوجة عمي إنسانة رائعة ، تؤمن بالحب كثيرا فقد تزوجت مع عمي بعد الحب الطويل الذي جمعهما .. اجتمعنا جميعنا على طاولة العشاء ..

" سلمت يدك يا أختي ، إنه لذيذ للغاية ..".

ردت على والدي قائلة :

" أكل العافية يا أخي ..".

مرت تلك الليلة ونحن نتحدث عن أمور كثيرة ، كنت متحمسة لشروق الشمس فجديتي ستعود أخيرا ..

" هيا ، حان وقت النوم يا فتيات .. هيا ..".

ردت ألماس :

" لقد زارني النوم منذ فترة ولكنني تماسكت بسبب الحديث الشيق ..".

ابتسمت مضيفة :

" هيا فلنخلد للنوم ..".

ردت زوجة عمي :

تصبحان على خير .. " .

قلت :

" وأنتما من أهل الخير .. " .

في صباح اليوم التالي استيقظت قبل الجميع استعداداً لاستقبال جدتي ، نظفت أرجاء البيت وأعددت القهوة .. استيقظ والدي بعدي بنصف ساعة ..

" صباح الخير يا هيام .. أرى بأنك نشيطة اليوم .. " .

قلت :

" نعم ، أنا جد سعيدة يا أبي .. هيا فلتجلس سأصب لك فنجان قهوة ساخنة .. " .

ثم أضفت :

" سأذهب معك إلى المشفى .. " ..

لاحظت شرود والدي التام فكأنه يفكر في شيء ما أو أن أمرا ما قد أثقله و أتعبه ..

" ما الأمر يا أبي ؟ " .

__ " لا شيء ، ألم يستيقظ عمك بعد ؟ " .

__ " كلا ، ليس بعد يا أبي .. " .

في تمام الساعة العاشرة ذهبنا إلى المشفى جميعنا بعد إلحاحي الشديد على ذلك .. وحن موعد اللقاء الذي طال انتظاري له أخيرا ..

أقبلت جدتي وأشرقت الشمس معها ، كم اشتقت لها ..

لقد تغيرت ملامحها كثيرا فقد أتعبها المرض .. رأيتها جالسة فوق كرسي متحرك ظننت في بادئ الأمر أنه مؤقت ولكنني اكتشفت أن قدمها لا يستطيعان حمل جسدها المرهق .. بين عشية وضحاها تغيرت حالة جدتي الصحية ، الأمر مؤسف ومؤلم في آن واحد .. أصبحت أراقب حركتها و أتأكد من أنها حية بين الفينة و الأخرى .. مكث عمي عندنا ما يقارب خمسة عشر يوماً ثم عاد إلى منزله .. أصبحت حالة جدتي الصحية تزداد سوءا ، تعجز عن النهوض فيحملها والدي ، لا تستطيع الأكل مطلقاً .. تكتفي بالنظر إلي والبكاء في بعض الأحيان .

إن قلبي يتمزق لرؤيتها هكذا .. يقول الجميع بأنها تحتضر ولكنني لا أصدق كلامهم السخيف .. أدعو الله في كل صلاة أن يطيل عمرها و أن يرجعها كالوردة كما كانت

سابقاً ، فكم عجيب ما حدث لا أستطيع تصديقه سقطت دفعة واحدة .. من المشفى إلى سرير الاحتضار !

عاد عمي من جديد بعد انقطاع بصيص الأمل فقد أرجعها والدي إلى المشفى ولكن الأطباء نصحوه بتركها في المنزل حيث تكمل باقي أيامها بالقرب منا و بسلام .

إن الأمر أصعب من أن أشرحه بكلمة أو حتى بجملة فالقلب قد انشطر إلى قطع أصغر حجماً هذه المرة ، لقد اعتبرتها أُمي الثانية فهل ستتركني في الظلام مجدداً ؟ كلا .. كلا .. أرجوك لا تفعلي هذا بي يا جدتي .. أرجوك ، فلتعودي لحفيدتك ..

أصبح الجو كئيباً للغاية ، أنا هناك في الزاوية أجلس أعانق الحزن من جديد ، ربما لن تعود البسمة مجدداً .. ربما سأموت بعدها ..

" هيام ، لا تفعلي هذا بنفسك .. فلتنهضي .. جدتك تريدك .. " .

مسحت الدمع عن عيني مجيبة زوجة عمي بصوت متقطع :

" هل .. تريدني .. هل قالت أنها .. تريدني .. ؟ " .

_" أجل عزيزتي .. إنها تبحث عنكِ .. " .

نهضت من مكاني بسرعة متجهة إلى الغرفة التي تنام فيها جدتي :

" جدتي أنا هنا .. أنا هيام .. " .

_" هيام حبيبتي ، لا داعي للبكاء يا غاليتي .. " .

أجبت بصوت مرتج :

" ولكنك مريضة للغاية يا جدتي .. لا أستطيع تحمل هذا ، عديني بأنكِ ستشفين من أجلي .. عديني أرجوك .. " .

أمسكت يدي بيد ترتج من شدة التعب مضيفة :

" اعتني بنفسك وبوالدك ، لا تبكي على فراقني .. هذه هي الحياة وقد كبرت وحن موعد رحيلي .. " .

_" كلا .. عن أي رحيل تتحدثين يا جدتي .. أرجوك لا تفعلي هذا .. " .

نظرت إلى السماء مبتسمة :

" عمر أنا قادمة إليك .. أحمد أنا قادمة .. " .

كان عمر اسم جدي رحمه الله وأحمد أباها المتوفي أيضاً .. إنها ترى الأموات ..

أقبل والدي وعمي عبد الرؤوف نحوها بعيون باكية ..

" ما بها الجنة ؟ هل تستسلمين بهذه السهولة ؟ "

ردت على والدي قائلة :

" إن والدك بانتظاري يا بني ، لقد أطلت الغياب وحان موعد الرحيل .. "

لم يستطع عمي إخفاء دموعه فانفجر باكياً وخرج بسرعة من الغرفة فتبعه والدي ..

لم أستطع تحمل ما يجري فخرجت أنا الأخرى ..

إن الأمر أشبه بكابوس مزعج أرغب في الاستيقاظ منه بسرعة .. ليس هينا على الإنسان فقدان من أحب ، لقد جعلت جدتي عالمي و ألبستها تاج الأمومة بعد والدتي رحمها الله ولكنها ستتركني كما فعلت أُمي سابقاً .. لحد الساعة لم أتجاوز موتها فكيف لي أن أستقبل صدمة جديدة ؟

أحاول إقناع نفسي بأنها ستتماثل للشفاء وتعود كما كانت سابقا فإن الله قادر على كل شيء .. لم أستطع النوم مطلقاً في تلك الليلة ، بقيت أمام جدتي أراقبها .. أرى بطنها تصعد وتنزل فأطمئن وأدرك بأنها تتنفس ..

" هيام .. هيام .. "

إنها جدتي تناديني ، أمسكت بيدها مجيبة :

" أنا هنا يا جدتي .. أنا هنا .. "

رأيت دمعة تنزل من عيناها ، رفعت سبابتها كأنها تحاول نطق الشهادة .. صرخت بأعلى صوت لي منادية أبي الذي كان مع عمي في غرفة المعيشة يقرأ القرآن الكريم ..

أتى والدي والجميع بأقصى سرعة فتوفيت جدتي وتركت يدي التي كانت تمسكها ..

توفيت أمام عيني ، رأيتها تنطق الشهادة .. لقد توفيت أمامي ..

" مالذي حدث لها يا أبي ؟ مالذي حدث لها ؟ "

أغمض والدي عينيها بعد أن تأكد من نبضها قائلاً :

" فليرحمك الله يا جنتي .. "

مالذي يقوله ؟ هل غادرتني جدتي ؟ هل ماتت فعلاً ..

" كلا .. لا يمكن .. أنت تكذب .. لا يمكن أن تتركني .. لا يمكن .. "

عانقني والذي بقوة بعد أن انتابتني نوبة صراخ قوية ، صدمة موت ثانية تصيبني

..

كنت على تواصل دائم مع هيام لذا فقد كنت على دراية بالحالة الصحية الحرجة التي تمر بها جدتها ، فقد تطورت من السوء إلى الأسوء حتى وافتها المنية ..

استيقظت فزعاً على صوت صراخ قوي في الخارج .. خرجت من غرفتي مسرعا غير مدرك لم يحدث من حولي ..

خرج والدادي من غرفتهما ..

" مالذي يحدث ؟ "

خرجت رفقة أبي لمعرفة مالذي يحدث ، كان الصراخ من منزل هيام !

" لا شك أن جدة هيام قد ماتت .. "

أجبت بتوتر :

" ربما يا أبي .. سأذهب و أرى .. "

" سأذهب معك .. "

تقدمنا نحو منزل هيام وقلبي يكاد أن يتوقف ، إنه صراخها .. يا للمسكينة لقد تلقت من الصدمات ما يجعلها تعيش في تعاسة طوال عمرها ..

قرعت الباب قرعاً خفيفاً ففتحهم أيهم والدموع في عينيه متحجرة ..

" آسف لأننا أتينا في هذا الوقت المتأخر ولكننا سمعنا صراخا قويا جعلنا نقلق .. مالذي يجري ؟ "

رد أيهم بحزن كبير :

" لقد توفيت جدتي الآن .. "

لقد كان شكي في محله ، يا الله كن مع هيام في مصابها .. لم أصدق أن ابتسامتها قد عادت بعد وفاة والدتها والآن تتكرر نفس الحكاية معها .

" انتظرا لحظة ، سأنادي عمي .. "

بعد لحظات خرج والد هيام بعينين حمراوتين من فرط البكاء ..

" عظم الله أجركم يا صديقي .. "

قال بألم :

" شكر الله سعيكم .. "

صوت صراخ هيام كاد أن يتسبب في ثقب أذناي .. لا أستطيع رؤيتها تبكي .. لا أستطيع تحمل هذا ..

رد والدي :

" متى توفيت ؟ "

_" الآن ، والله أنا منهار للغاية .. لا أدري كيف أتعامل مع هيام .. لقد انتهيت .. "

قلت دون أن أزن كلامي :

" هل يمكنني رؤيتها ؟ "

أمسكني والدي من يدي مضيفاً :

" في وقت آخر ، فلنذهب الآن .. "

ثم أردف :

" إن احتجت إلى شيء لا تتردد مطلقاً .. "

دُفنت جدة هيام فشعرت بأنها قد انهارت وعادت إلى تلك الزاوية من جديد ، تلك الزاوية المظلمة الكئيبة التي لا يصل إليها النور مطلقاً ..

حاولت التواصل معها مرارا وتكرارا ولكنها قررت عزل نفسها عن العالم الخارجي ، لا تسمح لأحد بالاقتراب منها .. أرسل إليها والدتي بين الفينة و الأخرى فتعتذر عن رؤيتها ، أصبحت حالتها صعبة للغاية حتى أن والدها توقف عن العمل للاهتمام بها ، أصبحت قلقا عليها للغاية لو كان بإمكانني رؤيتها لجعلتها تعود للحياة مجددا ولكنني أخشى أن يرفض والدها طلبي ..

على طاولة الغذاء وأنا على غير طبيعتي ساقني الشرود إلى عالم آخر لولا صوت والدي الذي أيقضني ..

" نضال ، مابك ؟ "

_" والله أنا قلق على هيام ، أنت تعرف أننا مثل الإخوة وما يحدث يزعجني للغاية .. "

_" وماذا يمكنك فعله لها ؟ "

أجبت بتردد :

" لو أتكلم معها مرة واحدة يا أبي .. ربما تعود كما كانت في السابق .. "

رد والدي :

" لا أظن ذلك ، الفتاة تعاني من صدمة قوية يجب أن تعالج في أقرب الآجال .. " .

أيده والدتي مقترحة فكرة أعجبتني :

" معك حق ، سأذهب لزيارتها مساءً و أحاول معها عسى أن تسمع مني هذه المرة وتأتي معي إلى البيت فتغير الجو قليلاً .. " .

قلت مبتهجا :

" فكرة رائعة يا أمي ، فلتذهبي إليها رجاءا وحاولي معها من أجلي .. " .

__ " سأحاول يا بني ، هيا تناول وجبتك الآن .. " .

لقد سيطر القلق على كل حواسي فالمرحلة التي تمر بها هيام صعبة للغاية ، كم أتمنى لو باستطاعتي رؤيتها مرة واحدة عسى أن أغير ما في داخلها وأجعلها تحب الحياة من جديد .

انتظرت المساء بفارغ الصبر فقد أصبحت الساعات طويلة للغاية ، استلقيت فوق سريري .. تقلبت يمينا ويساراً ، أمسك الهاتف تارة و أنهض لأنظر من النافذة تارة أخرى ...

" تبا ، أصبح الوقت طويلاً فجأة .. " .

مرت الساعات ببطء شديد ليحل المساء بصعوبة بالغة ، نزلت إلى الطابق السفلي حيث كانت والدتي تتحدث مع خالتي عن هيام ، قاطعت حديثهما بعد أن رأيتها بالحجاب قائلاً :

" هل أنت ذاهبة إليها ؟ " .

قالت بلا ..

" حاولي معها مرارا وتكرارا ، يجب أن نخرجها مم هي فيه .. " .

ردت خالتي :

" والله لا أدري لماذا تعطونها هذه الأهمية ، مع الوقت ستعود كما كانت لا داعي لكل هذا الدلال .. " .

خالتي لا تشبه أمي مطلقاً حتى أنني أتعجب أحيانا من أن نفس الدماء تجري في عروقهما ..

__ " لقد تكلم والدك مع أب هيام و أخبره بأنني سأصطحبها إلى منزلنا كي يتحسن مزاجها قليلاً .. " .

أجبت بتوتر شديد :

" ومالذي قاله ؟ هل وافق ؟ " .

_" وهل لديه حل آخر ، إنه قلق للغاية ويرغب في رؤيتها وهي في أحسن حال .. أنت تعرف بأنني أحبها للغاية لذا فإنني سأحاول أن أجلبها معي .. لا تقلق .. " .
شعرت بالاطمئنان بعد كلام والدتي ، وصلت معها إلى منزل هيام داعيا لها بالتوفيق ..

" أرجوك يا أمي ساعديها .. " .

دخلت والدتي إلى المنزل بعد أن فتحه لها والد هيام ليخرج بعد ذلك مباشرة ..

" نضال ، كيف حالك يا بني ؟ " .

_" نحمد الله وأنت وهيام ؟ " .

رد بحسرة :

" هيام ، ليست على ما يرام .. أتمنى أن تتجاوز مع آسيا هذه المرة .. " .

قلت :

" ستتحسن لا تقلق ، لقد مرت بمرحلة سيئة للغاية ولكنها ستتجاوزها .. " .

مر وقت قصير على دخول والدتي منزل هيام أما أنا فقد بقيت مع والدها في الخارج أتبادل معه أطراف الحديث مغيرا زاوية نظري بين الفينة و الأخرى نحو الباب عسى أن تخرج أمي رفقة هيام ..

رحيل جدتي عني لم يكن هيناً البتة فقد شعرت بأن روحي التصقت بجثتها الهامدة التي دفنت تحت التراب ، قررت البقاء بمفردي لمدة فقد ذبلت دفعة واحدة .. الحياة ليست عادلة حتى تترك لنا من نحب فقد سرقت مني أمي وجدتي .. في الوقت الذي بدأ قلبي بالنبض حبا للحياة من جديد توفيت جنة أبي .

الأمر صعب للغاية ، أرى صورة أمي وهي تنظر من خلال نافذة غرفتي أما جدتي فهي تجلس بالقرب مني .. لازالت رائحتهما هنا ولن تزول مطلقا ..

ها أنا الآن أعيش رفقة الذكريات التي ستقضي علي في يوم من الأيام .. أرى في منامي أمي تارة وتارة أخرى أرى جدتي .. كم الاشتياق صعب ! أتمنى لو يعود بنا الزمن إلى الوراء فأخطف ساعة من ساعات الحب والحنان .. الدفء و الأمان .. يا ليت الزمن يعود يا أمي .. يا ليته يعود يا جدتي ..

مكث عمي عندنا لأيام بعد وفاة جدتي ولكن لا بد من الرحيل ، غادر هو وعائلته فبقيت رفقة والدي بمفردنا نتخبط وسط ذكرياتنا .

كانت الخالة آسيا تأتي لزيارتي في كل مرة ولكنني أرفض رؤيتها ، يعتذر منها والدي قائلاً بأنني أرغب في البقاء بمفردي ..

تأتي في كل مرة وأردها خائبة ، أصبحت أخجل من تصرفي هذا فعزمت على لقائها إن عادت مجدداً ..

أغلقت هاتفي منذ وفاة جدتي حتى لا يتصل بي أي مخلوق فأنا بحاجة لقليل من الخصوصية .. كنت على دراية تامة بأن نضال قلق للغاية و أنه متشوق لرؤيتي وللحديث معي ولكن حالتي النفسية لم تسمح لي بمغادرة غرفتي مطلقاً حتى أن والدي قد توقف عن العمل من أجلي فيجلب لي الطعام إلى غرفتي فأتناول منه القليل نزولاً عند رغبته .

في مساء أحد الأيام عادت الخالة آسيا كما كنت أتوقع فقد أخبرني والدي بذلك ..
" هيام ، آسيا هنا وترغب في رؤيتك .. توقفي عن هذا أرجوك .. تحدثي معها قليلاً .. " ..

قلت :

" حسناً ، دعها تدخل يا أبي .. " .

دخلت الخالة آسيا إلى غرفتي ، رأيت الدموع وهي تتسلل إلى عينيها الجميلتين فور رؤيتي ، أدرك تماماً بأنها تحبني للغاية ولكنه قلبي الذي انكسر وروحي التي دفنت تحت التراب ولم يبق سوى جسدي ..

" هيام .. عزيزتي .. " .

عانقتني بحرارة مضيئة بحزن :

" هل تفعلين هذا بي يا هيام؟ ألسنت مثل أمك ؟ لا تفعلي هذا مجدداً .. " .

أجبت بانكسار :

" آسفة ولكن شيئاً ما بداخلي قد انكسر .. " .

جلسنا بالقرب من بعضنا البعض ، وبعد الحديث الطويل شعرت بالاطمئنان والراحة النفسية حقاً ..

" ما رأيك لو نذهب إلى منزلي الآن ؟ " .

رفضت في بادئ الأمر ولكن ذكرها لنضال جعلني أغير قرارتي مباشرة ..

" ولكن نضال قلق عليك للغاية وهو ينتظرنا في الخارج .. هل تكسرين بخاطره هذه المرة أيضا ؟ "

_ " كلا ، سوف أذهب معك من أجله .. " .

نهضت من مكاني متجهة صوب الخزانة حيث ارتديت حجابي ..

_ " هيا فلنذهب الآن .. " .

كان نضال ينتظرنا في الخارج فعلاً ، رأيت عينييه وهما يلمعان فرحاً أما والدي فقد ابتسم سرورا ..

" و أخيراً يا ابنتي .. الحمد لله .. " .

أردف نضال :

" هيام ، هل أنت بخير ؟ "

قلت :

" بخير الحمد لله .. " .

ثم أضفت :

" سأذهب مع الخالة آسيا ، سأعود بعد قليل يا أبي .. " .

_ " لا بأس يا هيام .. المهم أن تتحسني .. " .

مع كل خطوة كنت أخطوها أشعر بمراقبة والدي ونضال لي ، أظن أنني تسببت لهما بالكثير من الألم بسبب الحالة التي كنت فيها ..

دخلت إلى منزل نضال ، ركضت خولة ناحيتي فرحة بقدومي ..

" هيام .. اشتقت إليك .. " .

_ " أنا الأكثر اشتياقاً .. " .

أقبلت خالة نضال نحوي هي الأخرى :

" مرحبا بك ، لقد اشتقنا إليك .. " .

قلت :

" شكراً جزيلاً .. " .

جلست في غرفة الاستقبال رفقة الخالة آسيا وشقيقتها التي لم تستطع إخفاء ما تريده ..

" ألا ترين بأنك بحاجة إلى زوجة أب ؟ "

انزعجت الخالة آسيا كثيراً هذا ما استنتجته من نبرة صوتها حين قالت :

" وهل هذا الوقت مناسب للتحدث عن موضوعك ؟ دعي الفتاة وشأنها .. "

انتظرت دخول نضال بفارغ الصبر فقد اشتقت له حقاً .. بعد مضي ربع ساعة دخل فشعرت بأن قلبي يطير فرحاً رغم الألم الذي يسيطر على جناحيه الجريحتين .

" هيام .. "

نطق باسمي وجلس بالقرب مني ، فقالت والدته :

" ألم أقل لك بأنني سأحضرها معي هذه المرة .. ولكن للأمانة فإنها أتت من أجلك .. "

"_حقاً ! ولكن أخبريني لم فعلت هذا بنفسك يا هيام .. وتقطعين كل سبل التواصل بيننا ، ألا تعلمين بأنني أتألم لألمك وأحزن لحزنك ؟ "

غادرت خالة نضال المكان لتتبعها الخالة آسيا فبقينا بمفردنا .. كان في صوت نضال الكثير من العتاب كأنه يلومني على ما فعلت ..

" لم أكن بخير يا نضال .. أنت تعلم بأن الصدمة كانت كبيرة بالنسبة لي ، لم أستطع تحملها مطلقاً .. "

قال :

" أعلم ذلك ولكن ما كان عليك تركي وأنا قلق عليك هكذا .. "

"_آسفة ، أعدك بأنني لن أفعلها مجدداً .. "

أمسك بيدي في غفلة مني مضيقاً :

" عديني بهذا رجاءاً .. "

"_أعدك يا نضال .. "

بعد الوعد الذي قطعه له شعرت بأنه فرح بذلك ، إنه يهتم لأمرى كثيراً وأنا أقدر هذا ..

" عليك أن تكوني على ثقة تامة بأنني سأكون معك دائماً ولن أتركك مطلقاً حتى لو غادر الجميع .. فأنت مهمة بالنسبة لي ، وإياك أن تغيبني عني لفترة طويلة مجدداً .. مفهوم ؟ "

أومأت برأسي مضيفة :

" نعم ، لقد فهمت هذا .. كيف حالك أنت ؟ " .

رد بعدما أخرج زفيراً قويا :

" الآن فقط أصبحت بخير ، لو تعلمين كمية التوتر التي اجتاحتني .. عليك بالاعتذار مني .. " .

_" أعتذر ؟ على ماذا ؟ " .

رد بثقة :

" تعتذرين مني لأنك جعلتني أقلق طوال هذه الفترة .. " .
قلت :

" أنا أعتذر منك يا أخي ولن يتكرر هذا مجدداً .. " .

_" وأنا قبلت اعتذارك .. " .

عادت والدته نضال وهي تحمل صينية القهوة بين يديها ومختلف الحلويات اللذيذة ، ارتشفنا القهوة الساخنة معاً ومن ثم استأذنت بالعودة إلى المنزل ..

" عديني بأنك ستعودين غداً .. "

" أعدكِ .. " .

ثم أضفت :

" أنا بخير لا تقلقا ، وسأتي غداً حتماً .. " .

ودعهما وعدت إلى البيت حيث كان والدي بانتظاري ، كانت فرحته عارمة فقد عادت ابنته إليه أخيراً .. شعرت بتأنيب الضمير بعد ما رأيت فقد تسببت بالألم لمن أحب ولو كان ذلك دون قصد مني ..

قررت الوقوف على قدمي من جديد حتى لو كان بداخلي جحيم يحترق فوالدي يعتبرني عالمه الآن خاصة بعد وفاة والدته لذا فمن واجبي الاهتمام به و مراعاة مشاعره فهو الآخر فقد زوجته وشريكة حياته لتتبعها جدتي والتي كان ينعتها بجنتي .

لأكن صريحاً فإنني لم أتوقع موافقة هيام على المجيء إلى منزلنا ولكنني تفاجأت بها حينما فتح الباب وخرجت أُمي ثم هي ...

فرحت كثيراً لرؤيتها فكأنني لم أرها منذ عام ولكن الفترة كانت شهراً واحداً أطول من عشر سنوات .. فور دخول هيام منزلنا وددت لو بإمكانني الذهاب فوراً ولقاءها ولكنني لم أرغب في ذلك بل فضلت البقاء مع والدها حتى لا ينزعج مني ..

بعد مرور الوقت استأذن والدها بالدخول فانطلقت نحو منزلنا بخطوات متسارعة ونبض أسرع .. عاتبته على ما فعلته بي فوعدتني هي الأخرى بأن هذا لن يتكرر من جديد ..

بعد بقائنا مع بعضنا البعض لفترة جيدة قررت العودة إلى منزلهم تاركة لي الأمل بأن أراها غداً ..

استمر الوضع على ذلك الحال ، تأتي إلى منزلنا فأستغل الفرصة وأتحدث معها قليلاً محاولاً زرع الابتسامة الجميلة التي أحبها .. أصبح اهتمامي بها أكبر من السابق فقد حملت نفسي مسؤولية إسعادها كوني الأقرب إلى قلبها ..

لم تكن فرح في المدينة فقد سمعت بأنها قد سافرت إلى تركيا في رحلة سياحية لذا فلم تخبرها هيام بموت جدتها خشية أن تفسد مرحها هناك أما أنا فقد كرست جل وقتي لها .. أفكر فيها طيلة الوقت ، مالذي تفعله وهل تناولت طعامها أم ليس بعد ؟ إن هذه المشاعر التي تراودني غريبة نوعاً ما ولكنني اعتبرتها مجرد محبة أخ لأخته لا غير .

مرت شهور على وفاة جدة هيام ، أظن بأنها استطاعت تجاوز موتها نوعاً ما .. تأتي كل يوم إلى بيتنا فتدردش رفقة والدتي التي تعلقت بها أكثر من أي وقت مضى فأنتهز الفرصة كالعادة وأتحدث معها عن شتى المواضيع ..

بدأت العمل في المحل التجاري كما أراد والدي فأصبح لدي دخلي الخاص ، أجنبي الكثير من النقود ومع اقتراب عيد مولد هيام قررت مفاجأتها بحفلة كبيرة تجعلها تضحك بقوة على الأقل ... شرعت في التخطيط رفقة علاء الذي أيدني واقترح الاتفاق مع فرح عسى أن تساعدنا ..

" وهل تظن بأنها ستوافق يا علاء ؟ "

" طبعاً ستوافق يا رجل ، إنها صديقتها المقربة ولا شك من أنها ستفعل كل شيء من أجلها .. "

قلت :

" ما رأيك لو نقوم بتزيين المحل و نحتفل هنا ! "

" هذا الاقتراح الذي كنت سأقترحه عليك يا صديقي .. لم يبق سوى يوم لعيد مولدها يجب أن نبدأ التجهيزات من الآن .. "

أجبت بحماس :

" فعلاً ، سأترك مهمة التحدث مع فرح إليك .. تدرك تماماً بأنني لا أحب التكلم مع الفتيات .. "

رد بخبث :

"إلا هيام .. "

_"كفاك ثرثرة ، كم من مرة سأشرح لك بأنها مثل أختي .. " .

_"والله لن أصدقك ولو استمررت في قول ذلك لمئة عام و سيأتي اليوم الذي تدرك فيه حقيقة مشاعرك .. " .

تلك المشاعر التي جعلتني حائراً ، حاولت محاصرتها بالأخوة حتى لا تخرج عن دائرتها .

_"لا شك بأن والدها سيحتفل بعيد ميلادها أيضاً لهذا أفضل أن يكون احتفالنا مميزاً للغاية .. " .

قال :

"لدي العديد من الأفكار المميزة لا تقلق ، سيكون حفلاً مبهرًا .. " .

_"إن شاء الله .. أتمنى ذلك .. " .

مر اليوم وأنا أفكر في الطريقة المميزة للاحتفال ، اتفق علاء مع فرح فقد فرحت كثيرا وأيدت الفكرة ..

في تمام منتصف الليل أرسلت رسالة تهنئة لهيام بمناسبة بلوغها الثامنة عشر من عمرها .. أظن بأنني أول من هناها فهذا ما قد فهمته من جوابها ..

"الله ، هذا يعني لي الكثير .. كل عام و جميعنا بخير إن شاء الله .. أنت الأول الذي هنأني شكرا جزيلا لك يا نضال .. " .

_"العفو ، وهل يمكنني نسيان اليوم الذي ولدت فيه أختي ؟ " .

قالت :

"ظننت بأنك قد تنسى يوم مولدي ولكنني كنت مخطئة .. " .

_"يستحيل أن أنسى شيئاً يتعلق بك .. " .

في صبيحة اليوم التالي استيقظت باكراً للذهاب إلى المحل كما اتفقت مع علاء .. فهمت من هيام أنها لم ترغب في الاحتفال مع والدها بمفردهما فبعد وفاة والدتها وجدتتها اختفت الرغبة ..

التقيت في المحل بعلاء وفرح التي أرادت مساعدتنا في تزيينه..بعد مرور ساعتين أو أكثر كان كل شيء جاهزاً .. أردت أن تكون الحفلة مميزة لا يكون فيها سوانا .. أنا وعلاء وفرح لا غير .

" هيا اتصلي بهيام وأخبريها بأن تأتي إلى المحل .. " .
 _ " انتظر لحظة .. مالذي سأخبرها به ؟ " .

رد علاء :

" أخبريها بأنك ترغبين في شراء شيء ما واحترت في الاختيار وأنتك تريدين مساعدتها .. " .

اتصلت فرح بهيام قائلة :

" مرحبا هيام .. أين أنت ؟ .. أيمكنك المجيء إلى محل نضال ؟ أجل .. والله أرغب في شراء ملابس جديدة و لم أوفق في الاختيار .. أيمكنك المجيء من أجلي ؟ .. حسنا ، أسرع رجاء ، أنا بانتظارك .. وداعاً .. " ..

أنهت فرح المكالمة قائلة بحماس :

" إنها قادمة .. هيا فلنحضر أنفسنا .. " .

اشترى كل واحد منا هدية لهيام ، لا أدري مالذي تحتويه العلب المخصصة لها ولكنني متأكد أن هديتي هي الأفضل والتي ستنال إعجابها .. أو ربما هدية فرح !؟
 لم يكن المحل بعيدا عن حيننا ، يستغرق الوصول إليه حوالي ربع ساعة .. كنت قد وضعت لافتة في الخارج " مغلق " حتى لا يأتي الزبائن ..

اتصلت هيام بفرح تسأل عن مكانها وعن اللافتة الموضوعة في باب المحل ..

" أنت في الخارج ؟ حسنا .. حسنا .. أنا قادمة انتظري .. " .

التفت نحوي قائلة :

" هيام في الخارج يا نضال .. سأذهب إليها الآن .. " .

قمت بتشغيل أغنية عيد الميلاد و أطفأت الأنوار فأصبح المكان منارا بضوء الشموع الخافت ..

" عيد ميلاد سعيد هيام .. " .

أنرت المكان بعد مضي دقائق ، كانت فرحتها مختلطة بالدموع .. لم أتوقع مطلقا أن ترتمي في حضني ولكنها فعلتها ..

" نضال .. أنت تفعل من أجلي الكثير .. " .

_ " هذا واجبي يا هيام .. كل عام وأنت بخير .. " .

الذهول الذي سيطر على علاء وفرح جعلهما يقفان جامدين في مكانهما .. شعرت بدقات قلبي وهي ترتفع حتى حبات العرق قد اجتمعت على جبيني وبدأت بالتراكم شيئاً فشيئاً .. ابتعدت عني قائلة بفرح :

" كل هذا من أجلي ؟ "

ردت فرح :

" والله إنك محظوظة لوجود نضال في حياتك .. أحسبك عليه .. "

كانت لحظات لا تنسى فقد رأيت هيام تضحك من أعماق قلبها ، تركض خلفي كي تلطخني بالحلوى تارة وتركض خلف فرح تارة أخرى ..

حان موعد تسليم الهدايا وكان أولنا علاء الذي استعجل تقديمها ..

قالت فرح بفضول :

" فلتفتحيها ، دعينا نرى هدية علاء .. "

فتحت هيام العلبة فكان داخلها دب أحمر جميل في بطنه قلب كُتب عليه عبارة باللغة الإنجليزية " أحبك " .. شعرت بالانزعاج من تلك الكلمة للغاية حتى أنني شعرت بغليان الدم في عروقي حينها .. صرخت قائلاً :

" أحبك !! ألم تجد دبا آخر غير هذا ؟ "

تأفأف علاء مضيقاً :

" أين المشكلة ، مجرد كلمة لا غير .. "

__ " مجرد كلمة ؟ أتدري ما معنى أحبك أيها الأحمق ؟ إياك أن تكرر هذا .. "

ردت هيام :

" لا داعي لكل هذا يا نضال ، إنه لا يقصد شيئاً .. مجرد دمية لا غير .. "

لقد أثار غضبي بفعلة هذه ، كيف تجرأ على هذا كيف ..

فتحت هيام العلبة الثانية الخاصة بفرح وكانت عبارة عن مجوهرات غالية ..

" يا إلهي .. إنها ثمينة يا فرح ، لا أستطيع قبولها .. "

أمسكت فرح بيد هيام مضيفة :

" وهل يوجد شيء في هذه الدنيا أغلى من أختي ؟ "

كانت عائلة فرح تعيش في ثراء فاحش فوالدها رجل أعمال كبير ، تقضي معظم العطل الصيفية خارج الوطن .

عندما رأيت هدية فرح فقدت الأمل و ظننت بأن هديتي تافهة لا تساوي شيئاً ...
نظرت هيام إلى العلبة التي بين يدي بفضول كأنها ترغب في رؤية ما بداخلها أكثر
مم سبقها ..

" نضال ، أرني مالذي أحضرت لي .. " .
أجبت بخذلان :
" تفضلي .. " .

كان بإمكانني إحضار لها أجمل العطور والمجوهرات ولكن بساطة هيام جعلتني
أفكر في هذه الهدية التي تعني لي الكثير .. صراحة لقد قررت تقديمها لها كهدية
عيد مولدها بعدما أرنتني إياها والدتي ..

فتحت العلبة بشغف كبير ، كانت عبارة عن ألبوم صور لم تكن تملكها والدة هيام
فقد التقطتها لنا أُمي في ذلك الوقت ونسيت أن تخبر الخالة ياسمين عنها لذا فمن
الطبيعي أن لا تكون هيام على دراية بها .. وهذا ما قد أكدته لي والدتي حينما رأيتها
فقد قالت بأن هيام لم ترها مطلقاً ..
" نضال ، هذه صورنا .. لم أرها من قبل .. " .

ثم أضافت :

" كم كنت لطيفاً يا نضال ، انظر إلى نفسك أنت مليء بالدقيق .. " .

علقت كثيراً على الصور وهي تبسم ، كانت تلك الصور تعني لي الكثير فهي
تروي عن طفولتنا الجميلة التي قضيناها معاً .. كان ظني في غير محله فقد أعجبتها
هديتي كثيراً ..

" نضال ، إنها أجمل هدية قد أحصل عليها في حياتي .. " .

قلت :

" حقاً ! والمجوهرات .. " .

ردت بابتسامة :

" طفولتنا وذكرياتنا أغلى من كنوز الدنيا وما فيها .. " .

" ولكن لماذا لا نملك نسخة من هذه الصور ؟ إنها رائعة للغاية .. شكراً جزيلاً .. "

مر الوقت وهي تنظر إلى الصور بشغف وحب كبير بين الفينة والأخرى .. كان
اليوم جميلاً للغاية والأجمل أنني استطعت رؤية ضحكة هيام النابعة من القلب .

أصبح نضال يحاول إسعادي بكل الطرق ، فعندما اقترب عيد مولدي لم تكن لدي أي رغبة للاحتفال ولكن مفاجأته تلك جعلتني فرحة للغاية .. كانت هدية فرح باهضة الثمن ولكن ألبوم الصور الذي أهداني إياه نضال أغلى بكثير ، ذكريات طفولتنا الأروع والأجمل على الإطلاق .. ربما الصداقة القوية التي كانت تجمع والدتي بالخالة آسيا هي السبب الرئيسي للعلاقة القوية التي تجمعني بنضال .. كان اليوم رائعا للغاية ، طوال الطريق وأنا أنظر إلى الصور بين لحظة وأخرى .. " هيام ، المجوهرات التي أهديتكِ إياها أجمل بكثير من هذه الصور . "

" كلا ، أنت لا تعرفين ما تعنيه هذه الصور لي .. إنها طفولتي و ذكرياتي الجميلة التي لن تفارقني مطلقاً .. " .

قالت :

" المهم أن نضال قد حقق هدفه .. " .

أجبت بحيرة :

" هدف ؟ عن أي هدف تتحدثين .. " .

" لقد جعلك تضحكين بقوة ، كان هذا هدفه من البداية .. أتدركين بأن الشاب يحبك يا هيام ؟ " .

قلت بسخرية :

" كفأكِ سخافة يا فرح ، عن أي حب تتحدثين .. نحن كالأخوة لا غير .. " .

" لا أظن بأنه يعتبرك أختا له .. إن الأمر مختلف عن حب الأخ لأخته .. " .

أجبت بتعجب :

" ومالذي تقصدينه ؟ إن نضال أخي و انتهى .. لا أريد سماع هذا الكلام مجدداً .. " .

" حسناً ، لن أتكلم عن الموضوع مجدداً ولكن سيأتي اليوم الذي تدركين فيه حقيقة مشاعركما .. " .

وصلت إلى البيت بعدما جعلتني فرح في متاهة حقيقية ، المشاعر التي أكنها لنضال قوية للغاية ولكنني اعتبرها كحب الأخت لأخيها .. صحيح أنني لا أملك أختاً حقيقياً ولكنني أظن بأن حب الأخ يكون هكذا !!

وجدت والدي في البيت جالسا فوق الأريكة الموجودة داخل غرفة الاستقبال ..

" هذه أنت يا هيام ؟ " .

_"أجل يا أبي .. لقد عدت .. " .

توجهت حيث يجلس والدي ومن فرط سعادتي أريته ألبوم الصور ..

" انظر يا أبي إنها صورنا أنا ونضال .. انظر إلى وجهه المملوء بالدقيق .. كم هو مضحك .. " .

_"من أين لك هذه الصور يا هيام ؟ " .

أجبت دون سابق تفكير :

" إنها هدية من نضال .. لقد أعجبتني للغاية .. " .

صوت ضحكي كاد أن يخترق الحي كله ، شرد والدي في وجهي .. لاحظت الدمعة التي توشك على السقوط من عينه اليسرى ..

" مألوم يا أبي ؟ " .

_"أخيرا ، عادت الضحكة إليك يا ابنتي .. لا أتمنى من هذه الدنيا شيئا سوى سعادتك .. " .

قلت :

" والله هذه الصور أعادت البهجة إلى قلبي ، لقد تذكرت طفولتي الجميلة حيث كانت والدتي معنا .. " .

لم أرغب في إحياء الجراح القديمة لذا فقد قطعت كلامي في المنتصف ..

" انظر ، هدية فرح باهضة الثمن .. لم أقبلها ولكنها أصرت علي حتى أخذتها .. " .

_"لا بأس يا هيام .. لقد حضرت القهوة إن كنت ترغبين في ارتشافها .. " .

_"والله أنا متعبة للغاية ، سأستحم أولا ومن ثم أعود " .

طبعتم قبلة على جبين والدي وصعدت إلى غرفتي بأقصى سرعة محتضنة ألبوم الصور الخاص بنا أنا ونضال .

وضعت ألبوم الصور فوق سريري لأعود إليه بعد الاستحمام مباشرة .. لقد كان أجمل هدية حظيت بها في حياتي كلها ، أنا أعيش رفقة الذكريات الجميلة والتي لن تفارقني حتى أفارق الحياة .

عدت إلى والدي فتبادلت معه أطراف الحديث ، رؤيته لي وأنا أبتسم تعني له الكثير .. لم يعد يمنني من رؤية نضال أو التحدث معه بعدما أدرك بأن وجوده في حياتي يجعلني سعيدة للغاية .

" أبي ، أريد شراء ملابس جديدة .. " .

ابتسم قائلاً :

" سوف أعطيك النقود واشتري الذي ترغبين به .. " .

شعرت بأن الشرنقة التي كانت تحيط بي قد فُتحت فسمحت لي بالتحليق كفرشة تحوم في السماء فرحة بفصل الربيع ..

عدت إلى الحياة مجدداً وعدت إلى الدراسة من جديد فهذا آخر عام لي في الثانوية بحول الله تعالى ومن بعدها سأنتقل إلى الجامعة .. لدي العديد من الأهداف و الطموحات التي لا أحسن الاختيار بينها ..

أصبحت أعتني بشؤون البيت من طهو وتنظيف وغسيل و أدرس في آن واحد .. أخرج من الثانوية مسرعة كي أعد وجبة الغذاء فأتناولها وأترك نصيب والدي في الثلاجة وأعود للثانوية من جديد .. الضغط كان كبيراً للغاية فبدأت التخوفات من عدم توفيق بين أعمال المنزل والدراسة ، كما وقد فرضت التدخلات الخارجية سيطرتها .. اقترحوا على والدي الزواج من جديد ولكنه اعترض على ذلك متحججاً بأنني أقدم أفضل ما عندي وليس بحاجة لامرأة ..

لم تعجبني الفكرة مطلقاً لأنني لن أسمح لأي امرأة بدخول منزلنا وأخذ مكان والدتي ، صارحت والدي برفض التام لزوجاه فغمرني بشتاء الاطمئنان الباردة بعد نوبات الحر التي أصابتنني ..

في ساحة الثانوية حدثت نضال عن الموضوع قائلة :

__ " أتدري يا نضال ، اقترح عمي وزوجته على والدي الزواج من جديد .. " .

__ " والله يا هيام هذا من حقه وسيكون الأمر لصالحك .. تجدين من تطهو وتنظف وأنت تركزين على دراستك فحسب .. " .

ثم أضاف :

" ألا ترين بأن مستواك الدراسي في تراجع ملحوظ ؟ " .

أجبت بانزعاج واضح :

" أنا لا أرغب في ذلك يا نضال ، ألا تفهم ؟ ليس من السهل تقبل فكرة زواج والدي .. " .

__ " ولكن يا هيام ، من حقه إعادة بناء حياته .. ليس عدلاً أن يبقى هكذا .. سيأتي اليوم الذي تتزوجين فيه ومع من يبقى هو ؟ " .

قلت :

" ومن قال لك بأنني سأتزوج وأتركه .. سأبقى معه دائما وإلى الأبد شرط أن لا يدخل امرأة أخرى بيتنا .. "

__ " أنت عنيدة للغاية .. يجب عليك أن تتوقفي عن عنادك ودعي والدك يتزوج .. "

تأفأفت بازعاج مضيضة :

" يا لك من أحمق ، ظننت أنك ستوافقني الرأي .. "

حملق إلي بجدية :

" والله ، شئت أم أبيت فإنه سيتزوج .. لا يزال صغيرا ومن حقه إعادة بناء حياته .. "

رن الجرس فانتهى حديثنا بدخولنا إلى الصف .. الموضوع شغل جل تفكيري .. ربما نضال معه حق ، أبي بحاجة إلى امرأة تعينه على إكمال الطريق ...

خالة نضال زادت الأمور تعقيدا فهي تنتهز الفرص محاولة الاقتراب ولفت نظر والدي .. فتارة تأتي بحجة مساعدتي في تنظيف البيت وتارة أخرى تقترح علي إعداد مختلف الأطباق التي لا أجيدها .. لم نكن على تفاهم ولكن اقتراب امتحان البكالوريا والضغط الرهيب الذي أمر به من الجهتين قد يغير كل شيء ...

تراجع هيام في الدراسة حتم علي الموافقة وتأييد فكرة زواج والدها ، أدرك تماما بأن الأمر صعب للغاية ولكن امتحان شهادة البكالوريا على الأبواب ولا أرغب في تعرضها لخيبة أمل جديدة فهي فتاة طموحة للغاية وأتمنى أن تحقق كل ما ترغب به .

دخلنا إلى الصف وبالي مشغول في الموضوع الذي طرحته هيام ، ربما من الأفضل لو تقبل بالفكرة وتدع والدها يكرر الزواج فهذا لمصلحة الجميع على ما أعتقد .. سيتسنى لها تكريس كل وقتها للدراسة فلا طبخ ولا تنظيف ولا تدبير أمور البيت بانتظارها ...

في الجهة الأخرى خالتي التي تستعجل نصيبها خوفا من العنوسة ، تحاول إقناع أمي بفتح الموضوع مع هيام خاصة بعد معرفتها بالفكرة التي تحوم كالعصفور في بيتهم .

في المنزل مساء بينما نحن نحضر مسلسلا عن الثورة الجزائرية انفجرت خالتي كدوي المدفع قائلة :

" آسيا أنا أختك وتعرفيني جيدا .. ألا يسعدك أن أبني عائلة ؟ "

ردت والدتي :

" بلا ولكنني أدرك تماماً بأنك لا تحبين هيام لذا فلتنسي الموضوع .. "

"_ والله سأعاملها مثل ابنتي تماماً ولن تشتكي من شيء .. لا أرغب في أن أبقى عانسا طوال حياتي .. "

قلت :

" سيأتي نصيبك يا خالتي لا تتعجلي .. "

"_ فلتصمت أنت .. أنت لا تعرف شيئاً ، الأمر بيني وبين آسيا .. "

فكرت حينها في ردة فعل هيام لو تسمع بهذا الكلام لأنني متأكد بأنها ستنتزع عجل الغاية .. كم هي فتاة عنيدة ، لو تزوجت خالتي بوالدها لأصبحت أملك حق دخول بيتها ورؤيتها في كل وقت .. أمزح ..

" سأفكر في الموضوع .. "

"_ أرجوك يا آسيا ، حاولي إقناعها من أجلي فأنا أدرك تماماً بأن والدها لن يوافق إن رفضت هي .. "

قلت :

" إن وعدتني بأنك ستعتنين بهيام ربما أحاول إقناعها .. "

اقتربت مني ثم أمسكت يدي بقوة مضيضة :

" أعدك .. لا أريد أن أبقى عانسا طوال عمري .. حتى أنني أشكل عبئاً ثقيلاً عليكم .. "

ردت والدتي بازعاج :

" ما هذا الهراء الذي تتفوهين به ، لا أريد أن أسمع هذا مجدداً .. إن هذا بيتك وانتهى الموضوع .. "

ربما شعور خالتي بالعنوسة سيء للغاية ، أبرر إلحاحها الشديد على الزواج من والد هيام بالخوف من البقاء دون زواج أو ربما لأنها تراه الزوج المناسب لها !

أوصلت والدتي رغبة خالتي إلى أبي الذي يرى الفكرة مناسبة للغاية ، هذا ما قد فهمته من كلامهما .. مرت الأيام ونحن على تلك الحال ، موضوع الزواج سيطر على أرجاء البيت .. أصبحت خالتي تعامل هيام بلطف لم يسبق لي رؤيته من قبل حتى أنني شعرت بأن علاقتهما في تحسن ملحوظ ..

حاولت التصرف بشجاعة والبوح لهيام بما يحدث في بيتنا ولكن الخوف من انزعاجها جعلني أراجع في آخر لحظة ..

__ " هيام ، مالذي تفعلينه ؟ " .

__ " لا شيء .. جالسة لا غير .. " .

قلت :

" رأيتك تتأخرين في الرد لذا فقد ظننت بأنك منشغلة بأمر ما .. " .

__ " كلا و إنما أحدث أيهم ابن عمي .. " .

فور قراءتي للرسالة شعرت بأن الدخان يصعد من رأسي ، لا أدري مبرر انزعاجي ما هو ولكن مجرد رؤيتي لاسم أيهم أصبح الدم يغلي في عروقي والغضب يتطاير من عيني ..

__ " أيهم ؟ هل تتحدثين معه ؟ منذ متى ؟ " .

انتظرت ردها بفارغ الصبر ، فمالذي يريده منها ذلك المعتوه .. إنه أكبر منها سنا .. أفكار كثيرة تسبح حولي كسمكة تدور وتدور في أعماق البحر ..

__ " لا شيء ، إنه يحدثني حول موضوع زواج أبي .. " .

ثم أضافت :

" أظن بأنه من حق والدي إعادة بناء حياته يا نضال ، لا يمكنني الوقوف بينه وبين سعادته .. المسكين ، يأتي من العمل متعباً فلا يجد من يعد له فنجان قهوة ولا حتى من يؤنسه .. أحيانا أفكر في ترك الدراسة ولكنه لن يسمح لي بذلك أنا على تمام الثقة بهذا .. " .

وكأنني من كل الرسالة قرأت فقط " أفكر في ترك الدراسة "

__ " تتركين الدراسة ؟ هل جننت يا هيام ، لن أسمح لك بهذا مطلقاً .. أظن أن زواج والدك سيحل كل شيء .. " .

__ " أنا أفكر في الموضوع بجدية يا نضال .. " .

رأيت بأن الوقت مناسب للتحدث عن موضوع خالتي ..

__ " هل تفكرين في امرأة ما ؟ " .

__ " كلا ، ليست هنالك امرأة محددة .. سأترك الخيار لأبي .. " .

بتردد شديد ، أكتب الرسالة وأحذفها أكثر من مرة ولكنني أرسلتها منتظرا الرد على أحر من الجمر :

__ " ما رأيك في خالتي ؟ ألا تظنين بأنها مناسبة لوالدك ؟ " .

__ " لا أدري .. ربما !!!! " .

فهمت أنها لا تعارض الفكرة وهذا الأمر جعلني أشعر بالراحة ..

__ " فكري في الموضوع جيداً يا هيام .. إنها خالتي و أعرفها جيداً ، إن أزعتك بشيء أخبريني فحسب .. " .

الشيء الذي جعلني مرتاحا لهذا الزواج أنني سأصبح أقرب من هيام ولن أسمح لأي مكروه أن يصيبها ..

__ " سأفكر يا نضال ، لن يكون الأمر سهلا كما تتصور .. " .

فعلا ، لن يكون الأمر سهلا مطلقا ولكن ما باليد حيلة .. الضغط الرهيب الذي تمر به هذا حله الوحيد ..

__ " حسنا ، فكري بأريحية واعلمي بأنني سأقف معك مهما كانت الظروف .. " .

وضعت هاتفي على السرير وخرجت من غرفتي بعدما سمعت مناداة خالتي ..

__ " ما الأمر ؟ " .

ردت بتوتر :

" هل أخبرتها ؟ " .

فهمت أنها تقصد هيام بسؤالها ، أومأت برأسي مضييفا " نعم " .

__ " وما رأيها ؟ هل هي موافقة ؟ " .

__ " فهمت أنها لا تعترض زواجكما ولكنني تركت لها المجال للتفكير .. " .

عانقتني خالتي مضييفة :

" أنت أفضل ابن أخت في هذا العالم الفسيح .. " .

أصبح الأمر جديا للغاية فبعد فترة من الزمن وبعد فتح والدتي الموضوع مع هيام طلب والدها يد خالتي فكانت فرحتها كبيرة للغاية ..

الظروف التي أمر بها و تراكم الدروس علي جعلتني أهمل والدي نوعاً ما .. الأمر

الذي كان سببا في التفكير الجدي بخصوص زواج والدي ، شعرت بأنه بحاجة

لامرأة تعتني بشؤونه بعد فشلي في ذلك .. امتحان شهادة البكالوريا مهم بالنسبة لنا

وهو حلم الجميع حتى والدتي رحمها الله كانت تود لو أنجح و أتجاوز المرحلة بتفوق مبهر ..

الأمر ليس سهلاً مطلقاً ، دخول امرأة أخرى بيتنا و أخذها مكان والدتي رحمها الله لم يكن باليسير ولكن تفكيري في راحة والدي جعلني أتنازل عن الرفض الذي سيطر على كل حواسي .. اقترح نضال خالته كي تنال هذا المنصب العظيم الذي لم أكن أمنحه لأي امرأة لولا راحة والدي التي تقف عائناً وبعد أن تحسنت علاقتنا لم أجد أي مانع فخالة نضال أفضل من امرأة أخرى .

بينما نحن نتناول وجبة الإفطار ، جمعت فتات شجاعتي المتطاير في الأفق قائلة بصوت خافت :

" أبي ، أريد التحدث معك في موضوع مهم .. " .

وضع الملعة جانباً مضيفاً بحيرة :

" عسى أن يكون خيراً ، مالأمر ؟ " .

"_ الأمر متعلق بسعادتك و راحتك يا أبي .. أدرك أنني رفضت الفكرة في بادئ الأمر ولكن لا بد من حدوث ذلك حتى و إن كان صعباً للغاية .. " .

"_ هيام دون مقدمات رجاء .. أخبريني مباشرة .. " .

أجبت بثقة :

" أريدك أن تتزوج من خالة نضال .. " .

بدت علامات التعجب و الدهشة على وجهه ، ربما لم يصدق ما تسمعه أذناه لذا قال :

" ماذا ؟ أتطلبين مني أن أتزوج من أخت آسيا ؟ " .

"_ نعم يا أبي ، لا بد من أن تعيد بناء حياتك .. كما أنني لا أستطيع التوفيق بين دراستي و أمور البيت وكما تعلم فإن حلم والدتي أن تراني في أعلى المراتب و قد وعدتها .. " .

سيطر الحزن على القطعة الموجودة يسار صدري فجأة ، أدين بالاعتذار لأمي .. أدين بالاعتذار لها لأنني سأمنح زوجها وشريك عمرها لامرأة أخرى ..

"_ هيام ، لن أفعل شيئاً يجعلك حزينة .. لن أتزوج .. " .

أمسكت يديه بحنان مضيفة :

" هذا من حقك يا أبي ، الضغط رهيب للغاية ولا بد من أن نتقاسمه مع شريكة حياة .. لو أمي هنا لاختلف الأمر ولكن هذه هي الحياة ويجب علينا أن نعيشها رغم الأحزان .. " .

عانقتي والذي بحرارة قائلا :

" لقد كبرت بسرعة دون أن أنتبه لذلك ، حفظك الله يا هيام .. " .

بعد فترة وجيزة تقدم والذي لطلب خالة نضال بشكل رسمي ليعلننا زواجهما بعد شهر من الخطوبة .

أرسلت إلى نضال كلاماً مرحاً ..

__ " لقد أصبحنا عائلة واحدة الآن .. يجب عليك أن تهتم بي أكثر من الآن و صاعداً .. " .

رد بسرعة كأنه كان ينتظر مني مراسلته ..

__ " و كأنني لا أهتم بك يا ناكرة الجميل ، على كل مبارك لهما .. " .

__ " أمزح معك لا غير ، بالمناسبة أريد أن ترسل لي درس الرياضيات لأنني لم أكتبه بالكامل .. " .

أجاب :

" أيتها الكسولة ، لن أرسله لك .. دبري أمرك .. " .

__ " يا لك من بخيل حتى فرح لم تكتبه ، هيا أرسله أنا بانتظارك .. " .

__ " انتظري قليلاً أيتها المشاكسة .. كيف الأجواء عندكم بعد الخطوبة ؟ " .

قلت :

" وكيف ستكون مثلاً ؟ إن قلبي كئيب للغاية ولكنني متماسكة من أجل والذي فسعاده تستحق التضحية .. " .

إن حزني لشديد على دخول امرأة أخرى بيتنا غير أنني أخفي أجنته اللعينة خلف ابتسامة مصطنعة ..

__ " لا بأس يا هيام ستتعودين مع مرور الوقت .. " .

قلت :

" ربما .. نتحدث لاحقاً .. " .

وضعت هاتفني على جنب متجهة إلى مذكرتي التي أكتب فيها كل ما يراودني من مشاعر حزينة .. جعلتها بئر أسراري التي لا أرغب في أن يكتشف أمرها أحد حتى نضال.

رن هاتفني مرة فلم أجب إلا عندما رن للمرة الثانية .. كانت فرح المتصل ..
 _ " مرحبا فرح ، كيف حالك ؟ " .

قالت :

_ " بخير الحمد لله وأنت كيف حالك ؟ " .
 _ " الحمد لله أنا بخير .. سأرسل إليك درس الرياضيات لاحقاً .. " .

_ " والله لهذا السبب اتصلت بك بالإضافة إلى أنني بحاجة ماسة لمساعدتك في استيعاب بعض الدروس .. " .

قلت :

_ " لا بأس ، نلتقي صباحا في المكتبة وندرس بأريحية .. " .
 _ " فكرة ممتازة .. نلتقي غدا وداعا .. " .

عدت إلى كتابة ما يختلج صدري من مشاعر مختلطة بعد إنهاء المكالمة .. تحدثت عن نضال قليلا و عن فرح و عن والدي وزواجه الذي أدخل الحزن إلى قلبي ولكن الظروف و رغبتني الجامعة في رؤيته سعيدا جعلتني أرضى بتحدي الحياة و أقبل بالتغيير الجديد ..

بعد التفكير الطويل الذي جرنني إلى دوامة من التوتر ، قررت النوم أخيرا كي أستيقظ باكراً و أدرس رفقة فرح في المكتبة .

كان الليل طويلا للغاية حتى أنه جمعني بوالدتي رحمها الله في المنام ، كانت ترتدي فستانا أبيضاً طويلا ، وشعرها الحريري منسدل على كتفها ..

_ " أمي ، أنت هنا .. اشتقت لك كثيرا يا أمي .. " ..

ارتيمت في حضنها فشعرت بالدفء وأنا في فراشي كأنه حقيقة ! كأنني فعلا معها !

_ " عليك أن تواصل الطريق بشجاعة .. أنت تستطيعين فعل المستحيل يا هيام ..
 كوني سعيدة من أجلي .. " .

ابتعدت عني قليلا مضيئة :

" اعتني بنفسك يا ابنتي .. " ..

تراجعت إلى الوراء قليلاً ثم ركضت مسرعة إلى أن اختفت .. بدأت بالصراخ ..
 _" أمي .. أمي .. عودي يا أمي ، لا تذهبي أرجوك .. خذيني معك يا أمي .. أمي ..
 .. "

استيقظت بفزع و أنا أصرخ بأعلى صوت لي :

_ " أمي .. أمي .. " ..

سمع والدي صراخي القوي فأقبل نحو غرفتي مسرعاً ..

_ " هيام .. هيام .. أنا هنا يا ابنتي .. " ..

بصوت مرتج متقطع أجبت :

" إنها أمي يا أبي ، لقد رأيته .. لماذا تركتني يا أمي .. لماذا .. " .

عانقتي والدي بتأثر قائلاً :

" إنه مجرد حلم يا هيام .. مجرد حلم .. " .

أحضر لي كأس ماء مضيئاً :

" اشربي القليل من الماء .. رحمها الله يا ابنتي ، إنه مجرد حلم .. " .

ارتفيت في حضن والدي باكية .. ظننته حقيقة ، ظننت بأنها عادت .. ظننت بأنني فعلاً معها .. لو تعودين يا أمي ، يا ليتك تعودين .

_ " هيا فلتنامي يا عزيزتي .. هيا .. " .

مكث والدي قليلاً في غرفتي ثم غادر أما أنا غادرني النوم بعد المنام الذي رأيته .. فقد جعلني اشتاق إلى حضن والدتي الدافئ و إلى تفاصيل وجهها البريء .. إلى قبلاتها و همساتها حتى عتابها لي قد اشتقت إليه ..

في الصباح الباكر استيقظت و أنا متعبة كأنني خرجت من حرب أو ما شابه .. توجهت إلى دورة المياه حيث توضأت و أدت صلاتي .. اقتحمت رائحة القهوة غرفتي فأدركت أن والدي في المطبخ ..

نزلت إلى الطابق السفلي ، دخلت إلى المطبخ حيث جلست فوق الكرسي الموجود هناك قائلة :

" صباح الخير والدي .. " ..

عاودت النهوض كي أقبل رأسه كما اعتدت فقد أنساني التعب ذلك ..

_ " كيف حالك يا أبي ؟ " .

قال :

__ "أنا بخير ماذا عنك ؟ هل نمت بعد خروجي من غرفتك .. " .

__ "والله لم أستطع النوم مطلقاً ولكن لا بأس أنا بخير الآن .. " .

تغيرت ملامح وجه والدي قليلاً فأدركت بأنه على وشك البوح بالكثير ..

__ "أدرك تماماً بأن الأمر صعب للغاية عليك و أنك تدعين التماسك من أجلي .. أنا والدك ويمكنني قراءة أفكارك بسهولة .. أنت تفعلين كل هذا من أجلي ولكن فلتعلمي بأن سعادتي تكمن في سعادتك .. إن كنت حزينة لزواجي فلم تكمله ؟ سأحدث معهم و أخبرهم بأنني تراجع عن فكرة الزواج .. أنت أهم مخلوق بالنسبة لي يا هيام .. " .

رفضت كلام والدي كلياً فليس من حقي منعه من إعادة بناء حياته فمن يدري ربما لن أكون معه غدا ! من سيعتني به إن ابتعدت عنه ؟ إن تعلمت شيئاً من هذه الحياة فهو أنه بين ثانية و أخرى قد يرحل أي أحد .. بين عشية وضحاها قد أفارق والدي و لن يجد من يعتني به ..

__ "كلا ليس الأمر كما تظن يا أبي .. صدقا ، أنا سعيدة لزواجك هذا وكل ما أريده الآن أن تكون مرتاحاً و سعيداً لا غير .. "

شعرت بأنه لم يقتنع بكلامي مطلقاً لذا فقد حتم علي الموقف إلقاء العديد من المحاضرات الطويلة محاولة طرد فكرة التراجع عن ارتباطه من جديد ..

__ "لقد تأخرت كثيراً ، يجب علي المغادرة الآن ففرح بانتظاري .. " .

__ "إلى أين ؟ " .

قلت :

" إلى المكتبة كي ندرس معاً .. " .

طبعت قبلة على جبين والدي ومن ثم بخطوات متسارعة اتجهت صوب غرفتي كي أحمل أغراضي و أغادر المنزل نحو المكتبة .

في صبيحة اليوم التالي استيقظت على صوت منبه هاتفي الذي ضبطته في تمام الساعة السابعة .. توجهت إلى دورة المياه حيث غسلت وجهي ومن ثم غيرت ملابسني .. تصادفت مع فؤاد وهو يخرج من غرفته ، تعود على النهوض باكراً هو وخولة .. لا أدري لم الصغار يستيقظون باكراً ، لا واجبات ولا أعمال بانتظارهم .. توجهت إلى المطبخ فقد تعودت على وجود والدتي هناك ..

__ "صباح الخير أُمي .. " .

_" صباح الورد عزيزي .. ظننت بأنك لن تستيقظ مبكراً اليوم ، مالأمر ؟ ".
يوم السبت لا دراسة فقد اعتدت النوم حتى العاشرة ولكن هذه المرة استيقظت باكراً
بعدها اتفقت مع علاء كي ندرس معا في المكتبة ..

_" سأدرس في المكتبة رفقة صديقي .. " .

ردت مبتسمة :

" لم يبق الكثير يا بني ، أتمنى أن تتجح وتتفوق .. " .

ارتشفت القهوة الساخنة وخرجت من البيت مودعا والدتي وفؤاد ...

اتصلت بعلاء كي ألتقي به في منتصف الطريق ..

_" صباح الخير .. أين أنت ؟ " .

_" لقد خرجت من البيت الآن وأنت ؟ " .

قلت :

_" وأنا كذلك نلتقي في منتصف الطريق .. " .

بعد مرور عشر دقائق التقيت بعلاء فأكملنا الطريق معا نحو المكتبة ..

_" اليوم مخصص للرياضيات ، أنا ضعيف في هذه المادة كثيرا و أريدك أن
تساعدني في استيعاب الكم الهائل من الأرقام والقوانين دفعة واحدة .. " .

ضحكت مضيئا :

_" أسهل شيء الرياضيات ، لا أدري لم الجميع يكرهها .. " .

_" أنت مختلف عنا يا صديقي .. " .

بعد مضي خمس دقائق أو أكثر وصلنا إلى المكتبة ومن حسن الصدفة أن هيام
كانت هناك ، لم أستطع منع نفسي من إلقاء التحية لذا فقد اقتربت منها بهدوء قائلا :

_" صباح الخير ، أنت هنا .. " .

_" صباح الورد .. أجل ، سندرس الرياضيات .. " .

صرخ علاء قائلا :

_" ونحن كذلك ، ما رأيكم لو ندرس معا ؟ " .

ردت فرح :

_" كلا ، لا يمكنني فهم أي شيء إن اجتمعنا أربعتنا .. " .

أجاب علاء :

__ " الأمر ليس بذلك السوء ، هيا سندرس معا .. " .

ودون أن تتم الموافقة على طلبه سحب كرسيه وجلس بالقرب من فرح ..

" علاء ، جلست دون موافقتهم حتى .. هيا فلتنهض يا صديقي .. " .

ردت هيام :

__ " كلا ، لا توجد أي مشكلة .. فلتجلس يا نضال هيا .. " .

لأول مرة في حياتي شعرت بانجذابي الشديد نحو هيام ، لم أستطع التركيز في التمارين التي نحلها لأنني غرقت في لون عينيها البني الجميل و في تفاصيل وجهها البريء .. لأول مرة شعرت بأن شيئا ما يسيطر على فؤادي كلما رأيته .. دقائق قلبي تتزايد و الابتسامة التي تنبعث مني كالأبله كلما نظرت إلي ..

__ " نضال ، ركز قليلا .. " ..

في الأساس أنا ممتاز في مادة الرياضيات ولم آتي سوى لشرح ما تعسر على علاء فهمه ..

__ " أنا معك .. أكمل يا هيام .. " .

ربما شعرت بنظراتي الغريبة ولكنني لم أستطع التوقف عن النظر إليها .. ربما علاء معه حق ؟ ربما الذي يجمعني بها أكبر من أن يقيد بمسمى الأخوة ؟

__ " أعيدي هذه النقطة لم أفهمها جيدا .. " .

ردت فرح على علاء :

__ " انتظر قليلا ، ناولني تلك الورقة سأشرحها لك بطريقتي الخاصة فهي سهلة للغاية .. " .

قلت :

__ " سأخرج قليلا و أعود .. " .

نظرت هيام باستغراب مضيفة :

__ " إلى أين ؟ " .

__ " أستنشق بعض الهواء وأعود .. " .

ردت :

__ " سأذهب معك ، حتى أنا أرغب في استنشاق الهواء العليل .. " .

خرجت رفقة هيام ، لم نتحدث كثيرا فقد اكتفيت بالنظر إليها بين الفينة و الأخرى ..
كان شعورا غريبا للغاية ، لا أدري مالذي أصابني حينها وكأنني أراها للمرة
الأولى و كأنني لا أعرفها من قبل ! مالذي يحدث معي ؟

ربما قد لاحظت شرودي و غرابتي ، حتى أنا محتار و قلق بخصوص هذه المشاعر
الغريبة التي تسيطر على حواسي ..

__ " نضال ما بك ؟ أنت لست على طبيعتك .. أحدث أمر ما أزعجك ؟ " .

أجبت بتوتر :

__ " كلا ، لا يوجد شيء .. " .

__ " أتخفي عني أمرا ما ؟ " .

قلت :

__ " كلا ، فلنعد إلى المكتبة .. " ..

الآن أنا بحاجة ماسة إلى البقاء بمفردي لبعض الوقت ، الأمر غريب للغاية .. طوال
عمري و أنا أعلن أخوتي مع هيام لكل من هب ودب و الآن تخونني مشاعري !!
كلا .. كلا .. لن أسمح لهذا أن يحدث ..

__ " حسنا ، كما تريد .. فلنعد .. " ..

عدنا إلى المكتبة حيث مكثنا هناك ساعة أخرى من الزمن و عدنا إلى منازلنا ..
فكري أصبح مشوشا للغاية ، أدرك بأنها مهمة بالنسبة لي ولكن الإحساس الغريب
الذي فرض سيطرته فجأة جعلني أقع في دوامة من الحيرة و التخوف مما قد يعنيه
ذلك الإحساس .

كان منتصف النهار قد اقترب فوجدت والدتي تعد الوجبة كالعادة ..

دخلت إلى المطبخ كي أشرب الماء حتى أرتوي ، كان المنزل هادئا للغاية
فاستغربت ذلك لذا سألت عن فؤاد وخولة فقالت بأنهما خرجا مع خالتي لشراء
مختلف الأغراض التي تنقصها لزواجها ..

__ " و أنا أقول لم البيت هادئ هكذا .. " .

__ " لقد أراحتني من صراخهما المستمر والذي لا ينتهي .. هل أنت جائع ؟ " .

قلت :

__ " قليلا ، أين أبي ألم يأت بعد ؟ " .

__ " كلا ، ليس بعد .. الحرارة مرتفعة للغاية اليوم .. " .

"_ لو ترين في الخارج ، متى خرجت خالتي ؟ " ..

"_ في تمام الساعة التاسعة ، اتصلت بها منذ قليل قالت بأنها في طريق العودة .."

قلت :

"_ جيد ، سأغير ملابسي وأعود .. اللون الأسود يجذب أشعة الشمس نحوي .. "

"_ نصحتك ولم تسمع مني يا ملك الأسود .. "

"_ سأعود بعد دقائق .. رائحة الطعام الزكية جعلت الجوع يشيد قلعتة في بطني .. "

صعدت إلى غرفتي حيث غيرت ملابسني ، وضعت هاتفي فوق السرير وعادت النزول إلى المطبخ ..

"_ نضال لقد أعددت هذه الوجبة خصيصا لهيام ، خذها لها وتعال .. "

اضطربت فور سماعي اسمها حتى شعرت بأن الهواء ينفذ في المكان ، هذه الأحاسيس الغريبة قد تقضي علي ..

"_ أنا ؟ " ..

ردت بحيرة :

"_ بلا ، ومن غيرك اسمه نضال .. "

أجبت بتوتر :

"_ انتظري حتى يأتي فؤاد ، أنا متعب ولا أرغب في الخروج من المنزل مجددا .. "

"_ أيها الكسول ، فلتنهض هيا .. "

خرجت من المنزل حتى أوصل الأمانة لهيام ، قرعت على الباب ففتحت لي وهي تبتسم ...

"_ هذا أنت يا نضال .. "

أجبت بسرعة ودون أن أنظر إلى عينيها الجميلتين :

"_ لقد أرسلته لك والدتي .. بالصحة و العافية .. "

لم أنتظر حتى لأسمع شكرها ومديحها لطبخ والدتي فقد التفت للوراء بسرعة وغادرت بخطوات متسارعة للغاية .

قد أبدو غريباً نوعاً ما ولكنني قررت الابتعاد عنها لفترة وجيزة حتى تغادرني هذه المشاعر و يعود كل شيء كما كان في السابق .

بدأ نضال يتصرف بغرابة فقد لاحظت نظراته تلك التي جعلتني مشوشة نوعاً ما .. في المكتبة رأيت شخصاً آخر غير نضال الذي أعرفه .. نظراته تلك لا زالت عالقة في ذاكرتي ولكنني لم أرغب في فهم الموضوع بطريقتي الخاصة فهي مربوطة بحبال من الشكوك الموصولة في بئر عميق مملوء بالكثير من المشاعر الدفينة ..

بعد عودتي إلى المنزل سمعت صوت طرق على الباب ، فتحت الباب على مصراعيه لأرى نضال أمامي .. حضرت لي الخالة آسيا الوجيهة التي أحبها والغريب أنه لم يتح لي الفرصة حتى لأشكره و أبلغ أمه سلامي وامتناني الكبير لها ، غادر بسرعة وأنا في حيرة من أمري .. ليس من عادته أن يتجاهل كلامي ظننت بأن الأمر مؤقتاً ولكنه لم يكن كذلك مطلقاً فمع بداية كل يوم جديد يزداد الأمر سوءاً ويكبر بالون تجاهله الذي ملأه عمداً .

في ساحة الثانوية رأيته بمفرده فعلاء لم يأت .. انتهزت الفرصة و ذهبت إليه لأفهم ما يدور في ذهنه .. اقتربت منه أكثر و أكثر حتى رأيته ..

__ " نضال ، ما بك لماذا تتجاهلني ؟ " .

أشاح بنظره عني قائلاً :

__ " لا شيء ، من قال بأنني أتجاهلك ؟ " .

أجبت بنفاذ صبر :

__ " والله من يرى تصرفاتك معي يظن بأن بيننا ضغينة ، أينما تراني تغير الطريق و كأنك لست نضال الذي أعرفه .. ألا تدري بأنك تحزنني بتصرفاتك هذه ؟ إن أخطأت معك في أمر ما فأنا آسفة ولكن لا تفعل هذا رجاءاً .. " .

اغرورقت عينايا بالدموع فلم أستطع التكلم بعدها كأن شعوري بخسارة نضال تسبب في صمتي ..

__ " ليس الأمر كما تظننني ... " .

تفوقت الدموع علي فانسابت رغماً عني ..

__ " هل أنا سيئة لهذه الدرجة حتى يغادرني كل الذين أحبهم .. هذا ليس عدلاً .. ليس عدلاً .. " .

بحثت عن مكان فارغ كي أبكي هناك عسى أن أرتاح قليلاً ، فقد اكتفيت من فقدان وليس لدي طاقة لابتعاد نضال عني .. نعم إنه مهم لدرجة كبيرة لا يمكن لأي

مخلوق تصورها ، أنا أحبه للغاية ففي كل مرة يسيطر الحزن على تفاصيل حياتي يأتي هو كنور ضئيل في وسط العتمة أتبعه فيزداد إنارة حتى يضيء كل العالم حولي ..

تساؤلات كثيرة تدور في ذهني ، مألذنب الذي اقترفته في حقه حتى ابتعد عني .. مألذي يجعله يتجاهل العلاقة التي تجمعنا .. ليس سهلاً أن تجد نفسك لا شيء بالنسبة لشخص كان في أمس يعتبرك مهما في حياته .. تجاهله لي جعلني أشعر بالوحدة أينما ذهبت ..

شرعت في البكاء بعدما جرح قلبي ، الأمر ليس سهلاً مطلقاً .. ألوم نفسي على ابتعاده هذا دون أي سبب .. بعد مضي دقيقتين سمعت صوت نضال وهو ينادي باسمي ..

__ " هيام .. " .

مسحت دموعي و لم أنظر إليه مطلقاً ، فكرر مناداته لي ..

__ " هيام .. لا تبكي رجاء .. " .

أجبت بصوت خافت مرتج بسبب البكاء :

__ " أنا لا أبكي ولكن .. " .

__ " ولكن ماذا ؟ " .

قلت :

__ " لم تفعل هذا .. لم تتجاهلني ، مألذي فعلته لك ؟ " .

جلس بالقرب مني ، أخذ شهيقاً قوياً يتبعه زفير حار شعرت بمدى حرارته ..

__ " ليس الأمر مهما يا هيام ، لا تشغلي نفسك بالتفكير الذي يتعبك دون فائدة .. أنا هنا معك ولن أتركك مطلقاً .. " ..

لم أكن مطمئنة مطلقاً فابتعاده عني فجأة جعلني أفكر في أمور كثيرة .. كأنه قرأ أفكارني تلك فأمسك يدي بحنان ، نظر إلى عيني قائلاً بصوت أحن :

__ " والله أنا معك دائماً ، لن أبتعد عنك يا أختي ... " .

شعرت بالأمان لمجرد مسكه يدي ، لا أدري متى أصبح عالمي الجميل الذي لا يعرفه أحد سواي ، لست أدري متى أصبح كل شيء جميل في حياتي ولكنني على دراية تامة بأن قلبي لن يحتمل ابتعاده عنه .

__ " عدني بأنك لن تتجاهلني مجدداً .. " .

أحكم قبضته على يدي قائلاً :

__ " أعدك يا هيام .. أعدك أن نضال لن يتركك مطلقاً .. أعدك .. " .

عادت البسمة التي اختفت فور تجاهله لي ، عادت وهي تحمل الوعد الذي قطعه نضال لي على جناحيها الذهبيتين ..
ثم أضاف :

__ " هيا ، فلنعد إلى الصف يا هيام .. " .

مسحت الدموع العالقة في عيني مجيبة :

__ " هيا .. " .

كانت فرح تبحث عني ولكنها لم تجدني هذا ما قد فهمته من خلال كلامها فور رؤيتها لي ..

__ " لقد بحثت عنك في كل مكان .. كنت معي و اختفيت فجأة .. أين كنت ؟ " ...
نظرت إلى نضال فعرفت الإجابة وحدها ..

__ " أنا أعرف أين كنت ومع من .. هيا فلندخل ستبدأ الحصة الآن .. " .

فور دخولنا نظرت إلى نضال نظرة امتنان ممزوجة بعاطفة قوية .. لن أستطيع التخلي عنه وإن أردت ذلك فهو رفيق الطفولة .. صديق الماضي و الحاضر و إن كان للعمر بقية فإنني سأختاره ليكون معي في المستقبل أيضاً .

عادت المياه إلى مجاريها و أصبحت علاقتي بنضال أقوى من أي وقت مضى ،
فمر الشهر بسرعة و حان موعد زواج أبي ...

حضر عمي عبد الرؤوف و عائلته ، لم تكن تملك أُمي إخوة ومن سوء حظي أنني لم أملك خالة أو خالا .. توفي جدي وجدتي منذ فترة بعيدة لذا فإن رائحة أُمي لا يمكن أن أجدها في أي مخلوق آخر .

غداً ستدخل امرأة أخرى بيتنا ، قضيت معظم الوقت وأنا أتحدث مع صورة والدتي و أعتذر منها عن فعلتي هذه .. لقد منحت مكانها لامرأة أخرى وهي التي كانت تفخر بحب والدي لها ، إن الأمر أشبه بطعني إلى قلبي طعنات متتالية ..

__ " هيام ، لا تظهرى حزنك أمام عمي .. " .

مسحت الدموع المتساقطة ثم أجبت الماس :

__ " كلا ، لن أدعه يرى دموعي اطمئني .. " .

اقتحمت زوجة عمي غرفتي هي الأخرى قائلة :

__ " انظري هذا الفستان يناسبك للغاية ، لقد اخترته بنفسه من أجلك .. " .

__ " والله لا داعي ، لا أرغب في ارتداء أي شيء .. " .

جلست بالقرب مني مضيفة :

__ " لا بد من أن ترتدي شيئاً أنيقاً يا هيام ، هذه الحياة تستمر رغم الأحزان و أنا أيضاً فقدت والداي منذ الصغر و أفهم شعورك وما تمرين به ولكن ما باليد حيلة يجب أن تكوني قوية من أجل والدك .. " ..

أخرجت زفيراً حاراً قائلة :

__ " ستستمر الحياة على كل حال .. رحمها الله ورحم جميع موتى المسلمين .. " .

ردت ألماس :

__ " هيا جربيه لنرى إن كان جيداً .. " .

كان الثوب أزرقاً سماوياً ، جميلاً نوعاً ما ولكنه قصير للغاية ولم يعجبني البتة فأنا لا أحب الفساتين القصيرة.

__ " إنه قصير للغاية يا ألماس ، لا أحب هذا النوع من الملابس .. " .

__ " إنه مناسب للغاية ، سأنادي أُمِّي لترى الجمال على أصوله .. " .

بعد لحظات دخلت زوجة عمي ، أعجبها منظري كثيراً قائلة بأن هذا ما يناسب عمري .

اشتريت ألماس تنورة قصيرة أيضاً ، فهي مهووسة بالملابس القصيرة على عكسي تماماً ..

__ " كلا ، لم يعجبني .. " .

ردت زوجة عمي :

__ " فلترتيه يا هيام ، إنه رائع صدقاً .. " .

قلت :

__ " سنرى لاحقاً .. " .

استأذنت كي أغيره ، رأيت هاتفه وهو يضيء فأدركت بأن رسالة ما قد وصلتني .. أمسكته بيدي ، كانت الرسالة من نضال .. فتحتها بسرعة و أنا أبتسم ..

" اسمعي ، لقد اخترت لك فستانا رائعا يا هيام .. ستبدلين فيه كالأميرات .. إن أمكنك أخذه فإنني سأكون مسرورا للغاية .. " .

قلت :

" ولكن زوجة عمي اشترت لي فستانا .. لا يمكنني رفضه .. " .

" سأرسل صورة له و اختاري الأفضل بينهما .. اتفقنا !! " .

" حسنا ، دعني أرى .. " .

بعد لحظات أرسل لي الفستان الذي اختاره لي .. إنه رائع للغاية .. ليس قصيرا بل كان طويلا وجميلا .. أنيقا للغاية أسود اللون .. ففضال مهووس باللون الأسود ويطلب مني دائما شراء حجاب أسود اللون بالرغم من أنني أملك العديد منها .

" رائع للغاية يا نضال .. إنه أفضل من الذي اشترته زوجة عمي بكثير ولكن كيف يمكنني أخذه ؟ " .

أجاب :

" الأمر بسيط للغاية ، سأرسله مع خولة بعد قليل .. " .

لم أفرح بالفستان على قدر فرحي باهتمام نضال ، إنه يهتم لأدق التفاصيل ولم أكن أتوقع هذا منه ولكنه يفعل المستحيل من أجلي وهذا يعني الكثير لي .

خطة تجاهلي لهيام لم تنجح فقد فشلت أمام دموعها ، لم أكن أعلم بأنني مهم لهذه الدرجة ولكن أحمد الله أنني أدركت ذلك قبل فوات الأوان .. دموع هيام غالية وأظن بأنها قد ذرفت منها ما يكفي لحد الآن و لن أسمح لنفسني بأن أكون سببا في تساقط أمطار الدموع المالحة من جديد .

وعدتها بأنني لن أتركها مطلقاً و سأكون عند وعدي لا ريب في ذلك ، سأجعلها تضحك من أعماق قلبها و لن أترك المجال للحزن فقد عزمت على تحطيم قلعه الحصينة المشيدة عندها .

مرت الأيام بسرعة وأتى اليوم الذي ستغادرنا فيه خالتي ، ستترك فراغا رهيبا في المنزل فقد اعتدنا على وجودها ويعز علينا فراقها .

لم نرض بإقامة حفل زفاف ضخم مراعاة لمشاعر هيام ووالدها لذا فقد اكتفينا بمأدبة عشاء اجتمع فيها جميع أفراد العائلة .. احتجت خالتي في بادئ الأمر ولكنها اقتنعت بالكلام في الأخير و فرحت بزواجها .

أتى موكب العريس لأخذها ، لم أهتم بكل الذين أتوا كان جل همي رؤية هيام .. نظرت في كل مكان بحثا عنها .. لم أنتبه أنها في السيارة المخصصة لأخذ خالتي ،

رأيتها وهي تنزل منها بخجل كأنها العروس التي ستزف إلى عريسها .. وكأنها نجمة لامعة في السماء ليلاً .. كانت ترتدي حجاباً لم أستطع معرفة ما إن ارتدت الفستان الذي أرسلته لها أم لا ، كنت متلهفا لرؤيتها به ولكن الحياء المسيطر عليها و الخجل الذي يراودني يمنع ذلك .

دعوت صديقي علاء كي يذهب معنا في الجولة المخصصة لخالتي نظرا لقرب المسافة بين منزلينا .. بالرغم من روعة الأجواء ولكنني شعرت بالحزن اتجاه هيام ، إنه لمن المحزن أن تدخل امرأة أخرى بيتهم ، ستتذكر والدتها وينكسر قلبها من جديد و ستزورها ذكرى جدتها فتحطم تلك الأشلاء أكثر و أكثر .. إنه لمن المحزن أن تفقد أحبتك .. كان الله في عونها ..

بعد الجولة القصيرة عدنا أدرجنا إلى بيت هيام حيث ستبدأ حياة جديدة داخله ، ربما ستتغير كل القوانين التي فيه بعد دخول خالتي إليه .. الشيء الذي جعلني أطمئن وعدنا لنا بالاهتمام بهيام ولكن رغم هذا سوف أراقبها عن كثب حتى لا تجرح مشاعر تلك البريئة .

__ " سوف تفضحنا بنظراتك يا نضال ، توقف عن النظر إليها هكذا .. " ..

كنت أسلط نظري على هيام التي تساعد خالتي في النزول من السيارة ، تنحنحت مجيباً :

__ " أنا أنظر إلى خالتي أيها الساذج .. " .

__ " توقف عن التصرف بغباء رجاء ، أنا أدرك تماماً بأنك تنظر إلى هيام لا داعي للإنكار .. " .

__ " وهل أنت تراقبني ؟ أنا أنظر إليها هل من مشكلة ؟ " .

ضحك علاء مجيباً :

__ " كلا ، لا توجد مشكلة .. انظر انظر .. " .

اقترب ابن عمي في هذه اللحظة منا ، شعرت بأنه يحمل في فمه الكثير من الكلام ..

__ " مالأمر يا مراد ؟ " .

__ " أريد أن أسألك عن تلك الفتاة يا نضال .. ما رأيك فيها ؟ " ..

قلت بدهشة :

__ " أي فتاة تقصد ؟ " .

__ " تلك التي كانت مع خالتك .. إنها جميلة للغاية ، هل هي مرتبطة ؟ " .

تبا ، هذا ما كان ينقصني .. شعرت بأن الدماء كلها اجتمعت في وجهي والغضب قد سيطر علي ، أجبتّه بانزعاج قد يكون لاحظته :

__ " نعم إنها مرتبطة ما شأنك بها ؟ " ..

__ " فعلا ! مؤسف حقا .. ما بك منزعج هكذا ؟ " .

قلت :

__ " لست منزعجا .. لدي عمل أقوم به ، نلتقي فيما بعد يا مراد .. " .

نظرت إلى علاء كي يلحق بي ، فلم يطق صبرا حتى ينفجر كالبالون المنفوخ بالهواء كثيراً :

__ " ما بك يا نضال ؟ هل جننت أم ماذا ؟ " .

__ " ما بك أنت الآخر .. دعني و شأني .. " .

قال :

__ " كان ردك فظا للغاية ، لم يكن عليك التحدث معه بتلك النبرة .. " .

أجبت بغضب شديد :

__ " لا يحق لأحد أن ينظر إليّ ، لقد أغضبني حقا .. من يختال نفسه حتى ينظر إليها بعين الإعجاب .. " .

__ " أين المشكلة ؟ سألك عنها لا غير .. " .

أمسكت يده مجيباً :

__ " هل أنت غبي لهذه الدرجة ، لقد أعجب بها وهو في سن الزواج .. إنه يرغب في أخذها مني أيها الأحمق ... " .

سيطرت علامات الاستفهام والتعجب في وجه علاء ، كأنني اعترفت له ودون قصد عن حبي لها ! مالذي فعلته لتوي .. يا لحماقتي ..

__ " والله كنت أعرف أنك تحبها .. علاقتكما أكبر من أن تسمى بالأخوة .. " .

__ " كلا ، لم أقصد ذلك و إنما ... " .

قاطعني قائلاً :

__ " لا داعي لإخفاء مشاعرك عني ، أنا أعرفك جيداً وكان الأمر واضحاً من البداية ولكنني تظاهرت بالغباء وسأيرتك ... " .

لا داعي لأن أخفي ما أشعر به عنه ، فقد ولدت مشاعر الحب داخلي دون رغبة لي في ذلك .. إن الحب الذي سيطر على قلبي كفيل بجعلي أفعال المستحيل لإبقاءها معي و بالقرب مني .. لو كنت في سن الزواج لطلبتها فوراً قبل أن يسبقني مخلوق آخر .

"_ والله حاولت إجهاض مشاعري المولودة حديثاً ولكن لم أستطع يا علاء .. لا أدري كيف ومتى أصبحت الحب الأول لي ولكن .. "

رد علاء :

"_ وهل الحب جريمة حتى تبرر ؟ "

ثم أضاف بمرح :

"_ والله أنتما تليقان ببعضكما البعض يا نضال .. "

"_ بالنسبة لها أنا كالأخ لا غير ، هذه الحقيقة لا يمكن تغييرها يا علاء .. أظن بأنني جنيت على نفسي و سأغرق قريباً .. "

"_ لن تغرق يا نضال ، لا تزال صغيراً على الغرق في بحر الحب .. "

قلت :

"_ وهل للحب عمر محدد ؟ "

قاطع والدي حديثنا وهو ينادي باسمي ..

"_ أنا قادم يا أبي .. "

نظرت إلى علاء مضيفاً :

"_ سأعود انتظرنني .. "

كان والدي يقف بالقرب من باب منزل هيام ..

"_ مالأمر يا أبي ؟ "

"_ أحضر لي هاتفني من البيت ، لقد تركته هناك .. أحضره من فضلك أنا أنتظر .. "

"_ حسناً ، سأعود بعد قليل .. "

أخبرت علاء بأنني سأأخر قليلاً ومن ثم توجهت إلى منزلنا حيث هاتف والدي .

حل اليوم الذي ستدخل فيه خالة نضال منزلنا الذي اعتاد على وجود أمي رحمها الله ، كل زاوية فيه تحمل صورتها .. وكل ركن فيه حكاية .. ضحكاتها و كلامها ..

أظن بأن البيت الأصم الذي لا روح فيه قد تأثر بما يجري فكيف لإنسان مثلي يحمل قلباً مليئاً بالمشاعر و الأحاسيس أن يتصرف وكأن شيئاً لم يكن .. إنها أُمي و بيتها الذي غمرته بحنانها ، إنها نبع الحنان التي غادرتني و أنا بحاجة ماسة إليها .

شعرت بأنني في عالم آخر ، الكل سعيد هنا سواي .. لن يستطيع أحد فهم ما أشعر به ، أظهار بالسعادة من أجل أبي فأوزع الابتسامات للحاضرين بين الفينة و الأخرى .. ربما استطاعت الخالة آسيا فهم شعوري فحتى هي أصبح لديها فراغ رهيب بعد رحيل صديقتها المقربة .. تظهر القوة و التماسك أمامي حتى لا أنكسر أكثر ..

أصبحت خالة نضال جزءاً من عائلتنا الصغيرة ، كان التعود على الحياة الجديدة صعباً نوعاً ما .. ربما لأنني اعتدت على القيام بأمور البيت بمفردي ، لا يمكنني الإنكار بأن وجودها قد أزاح عني حملاً ثقيلاً للغاية غير أنني لم أتقبل فكرة أخذها مكان والدتي مطلقاً ، قد يستغرق الأمر أياماً وشهوراً و أخشى أن يستغرق أعواماً !!

على طاولة العشاء حيث اجتمعنا ثلاثتنا ، نظر إلي والدتي قائلاً :

__ " اقترب امتحان البكالوريا يا هيام .. هل أنت مستعدة ؟ " .

قلت بتوتر :

__ " ربما ، أنا متوترة للغاية يا أبي و أخشى أن لا أنجح .. " .

ردت زوجة أبي :

__ " لا أريد أن تتوتري ، أنت تلميذة نجبية و ستتحصلين على الشهادة بكل تفوق .. " .

__ " إن شاء الله ، أتمنى ذلك .. " .

بعدما انتهينا من تناول الوجبة ، نهضت كي أعيد الأواني إلى المطبخ و أغسلها غير أنها رفضت ذلك قائلة :

__ " هيا ، إلى غرفتك .. لا أريد منك شيئاً سوى أن تدرسي .. هيا إلى الدراسة .. " .

ضحك والدي مؤيداً :

__ " فعلاً ، معها حق .. فلتدرسي جيداً يا هيام .. اجعليني فخوراً .. " .

قلت :

__ " إن شاء الله .. سأذهب إلى غرفتي .. " ..

دخلت إلى غرفتي فجلست فوق الكرسي حيث كان مكتبي ، حملت هاتفي لأرى أي رسائل جديدة وكالعادة نضال من يتذكرني وفرح لا غير .

دردشت قليلاً معهما ومن ثم وضعت الهاتف جانبا كي أدرس دون أن يتشتت انتباهي .

أصبحت ألتقي مع فرح كل يوم في المكتبة و أحيانا أخرى ينضم إلينا كل من نضال وعلاء .. كانت أياما متعبة للغاية ، لا أتخلى عن الحفظ و الفهم مطلقا فقد خصصت لكل مادة الوقت المناسب لها ، أستيقظ صباحا للحفظ و أترك المواد العلمية في منتصف النهار و المساء .. لقد قدمت أحسن ما لدي و لن أندم حين صدور النتيجة مطلقاً .

غداً اليوم الذي سأمتحن فيه ، سيكون الأدب العربي أول مادة لنا .. قررت الابتعاد عن الكتب و كل ما يتعلق بالدراسة ، سأجعل اليوم للراحة فحسب .. لذا فقد اتفقنا أنا وفرح للخروج و التنزه كي نزيح الضغط الرهيب الذي مررنا به طوال الفترة السابقة ..

__ " لقد اتفقت مع فرح كي نخرج معاً اليوم ، أتريدين مني شيئاً ؟ " .

ردت زوجة أبي :

__ " هل لديك نقود ؟ " .

للأسف الشديد فإنني نسيت أن أطلب النقود من والدي ، فقد كنت أرغب في شراء ملابس جديدة ليوم غد ولكن لا بأس عسى أن يكون خيرا .

__ " كلا ، لقد نسيت أن أطلب من والدي .. فرح من ستشتري ملابس جديدة .. " .

نهضت من الأريكة مضيئة :

__ " انتظري لحظة .. " .

دخلت إلى غرفة النوم لتخرج بعد لحظات وهي تحمل النقود بين يديها ..

__ " تفضلي ، اشتري ملابس جديدة و لا تتأخري في العودة فالحرارة مرتفعة للغاية اليوم ، لا أريد أن يصيبك الصداع غدا ... " ..

ربما كان حكمي عليها خاطئاً فقد كنت أعتبرها امرأة شريرة ، حتى أنني كرهتها في وقت سبق ..

__ " شكرا جزيلا لك .. لن أتأخر .. " .

اقتربت مني ثم عانقتني بحرارة قائلة :

- __ " العفو هذا واجبي ، أنا هنا من أجلك يا هيام .. " .
- __ ستجعلني أحبها لا ريب في هذا ، أنا بحاجة ماسة إلى من يقف معي في هذه الفترة .. أنا ممتنة لها حقاً .
- __ اتصلت بفرح كي أخبرها بأنني خرجت من المنزل . .
- __ " أين أنت يا فرح .. " .
- __ " أنا بالقرب من بيت وسام ، وأنت ؟ " .
- __ " أكاد أصل .. " .
- __ في طريقي التقيت بنضال الذي رافقني لغاية وصولي إلى بيت وسام ، كان حديثنا مختصراً للغاية نظراً للمسافة القصيرة ..
- __ " أين أنت ذاهبة ؟ " ..
- __ " سأشتري ملابس جديدة ، ألدك مشكلة ؟ " .
- رد بانزعاج :
- __ " وبمفردك ؟ هذا غير مسموح .. هيا عودي إلى البيت بسرعة .. هيا .. " .
- تأففت مضيفة :
- __ " لن أذهب بمفردك ، فرح بانتظاري .. وإن ذهبت بمفردك مالذي سيحصل ؟ " ..
- __ " لن أسمح لك بهذه البساطة ، مالذي ستشتريه ؟ " .
- أجبت :
- __ " حجاب هذا الأمر مفروغ منه .. " .
- رد بسرعة وهو يبتسم :
- __ " فليكن أسود اللون " .
- __ " أسود اللون ؟ أنت مجنون ، أتريدني أن أرتدي الأسود فقط أم ماذا ؟ " .
- __ " إنه يليق بك يا هيام .. " ..
- ضحكت مجيبة :
- __ " كلا ، لن يكون أسودا .. سأختار لونا رائعا للغاية .. " ..
- __ وصلت إلى بيت وسام حيث كانت فرح بالانتظار ..

- _ " حسنا ، سأذهب الآن .. وداعا .. " ...
- _ " اعتني بنفسك يا هيام ولا تنسي أريده أسود اللون .. " .
- أجبت ضاحكة :
- " يا لك من مجنون ، لا أدري مالذي فعلته في حياتي حتى ابتليت بأخ مهووس باللون الأسود لهذه الدرجة .. " .
- شعرت بأنه انزعج من كلامي نوعا ما بالرغم من أنني لم أتفوه بما يزعجه ..
- لم تسمح لي الفرصة بأن أسأله لذا فقد تركت الأمر لوقت لاحق ..
- _ " هيام ، هيا أسرعي .. " .
- بخطوات متسارعة توجهت نحوها ..
- _ " كل الوقت و أنت مستعجلة ، أنا هنا .. هيا فلنذهب .. " .
- _ " و كل الوقت وأنت مع نضال .. هيا فلنذهب أريد شراء ملابس رائعة للغاية والوقت لن يكفي لاختيار الأجمل .. " .
- أجبت بحيرة :
- _ " لماذا ؟ " .
- _ " خالتي ستأتي اليوم ويجب أن أعود بسرعة إلى البيت لأنها ستغادر بعد ساعة .. "
- قلت :
- _ " حسنا ، فلنسرع .. " .
- بصعوبة بالغة استطعت اختيار الحجاب الذي يناسبني أما فرح فقد وددت أن أقتلها حينها فطوال الوقت وهي تتذمر ..
- _ " كلا ليس جميلا .. ليتني اشتريت من تركيا .. لم يعجبني شيء هنا .. " .
- والعديد من الجمل التي زادت من ارتفاع درجة حرارة جسمي ..
- _ " هذا جميل يا فرح ، لا تقولي أنه سيء .. " .
- أمسكته بيدها قائلة :
- _ " كلا ، لا يناسبني مطلقا .. " ..
- _ " لا تقولي هذا يا فرح ، مالذي يعجبك أنت ؟ اختاري أي شيء ولنذهب .. " .

__ " فلنصعد إلى الطابق العلوي عسى أن أجد شيئاً جميلاً .. " .

قلت :

__ " أمري لله ، فلنصعد ... " .

استغرق الأمر كثيراً ولكن الحمد لله فقد اختارت ما يناسبها ، لقد ظننت أننا لن ننتهي من هذا مطلقاً ..

__ " أخيراً ، إنه جميل للغاية .. " .

ردت بمرح :

__ " حتى لو لم يكن جميلاً ، لا أظن بأنك ستقولين العكس .. " .

__ " يا لك من حمقاء .. ألم تقولي بأن خالتك قادمة .. " .

ضربت على رأسها بيدها مضيفة :

__ " لقد نسيت أمرها تماماً ستصل في أي لحظة ، أنا مشتاقة لها كثيراً .. فلنعد هيا .. " ..

__ " أنا الحمقاء التي لم أذكر خالتك منذ مدة ، لقد قتلتنني يا فتاة .. " .

ضحكت مجيبة :

__ " لا تبالغي ، الأمر ليس بهذا السوء . "

" حسنا ، فلنعد إلى البيت .. " .

أكملت الطريق بمفردي فلمحت من بعيد نضال وعلاء ، مررت بالقرب منهما فتبعني نضال قائلاً :

__ " هل أنا مخفي أم ماذا ؟ " .

قلت :

__ " لقد رأيتك ولكنني لم أرغب في إزعاجك .. " .

__ " أي إزعاج يا فتاة .. " .

نظر إلى الكيس الذي أحمله بين يدي مضيفاً :

__ " أي لون ؟ " .

أجبت بسرعة :

__ " رمادي .. نتحدث لاحقاً " .

دخلت بسرعة إلى البيت حيث كانت زوجة أبي تنتظرنني ..
_ " لقد عدت .. " .

_ " مرحباً بك ، مالذي اشتريته ؟ " .

_ " حجاب رمادي اللون .. لقد أحببته بشدة .. " .

اقتربت مني مضيضة :

_ " دعيني أرى .. " .

بعدها فحصته ردت :

_ " فعلاً جميل للغاية .. فلتجربيه .. " .

قلت :

_ " حسناً ، سأجربه وأعود .. " .

قاطعتني قائلة :

_ " ألم تري نضال في الخارج ؟ " .

_ " بلا ، رأيته .. مالأمر ؟ " .

قالت :

_ " لقد أعددت الوجبة التي يحبها ، إن لم يكن هنالك مانع فإنني أرغب في دعوته
لتناول الغذاء معنا .. " .

_ " كما تريد ، لا أمانع أنا .. أخبرني والدي فحسب .. " .

قالت :

_ " أخبرته قبل ذهابه للعمل .. هيام ، أخبريه أن يأتي رجاء .. " .

_ " حسناً ، سأخبره .. " .

عاودت الخروج من المنزل لدعوة نضال ولكنني لم أجده ، ربما دخل إلى البيت لذا
فقد قرعت على بابهم كي أناديه .

فتحت الخالة آسيا الباب ، قبلتها مضيضة :

_ " أين هو نضال ؟ " .

_ " في غرفته .. " .

__ "إن خالته تطلب منه المجيء الآن لتناول الوجبة معنا .. " .
بدأت الخالة آسيا بمناداته ..

__ "نضال .. نضال .. تعال يا بني .. " .

نظرت إلي مضيفة :

__ "هيا فلندخلي .. " .

__ "كلا ، أتيت لأخبره و أعود .. " .

بعد ثوان حضر نضال ، أخبرته الخالة آسيا عن الدعوة فقبلها و ذهب معي إلى المنزل .

انتهى حفل الزفاف البسيط و عاد الجميع إلى بيوتهم ، طوال الوقت وأنا أفكر في هيام وما تفعله .. هل تقبلت الفكرة أم ليس بعد ؟ ظل هذا السؤال يسبح أمام عيني كالسمك حتى أتت خالتي و أراحتني من هذا التشويش ..

منذ قدومها و أنا أسألها عن هيام وراحتها .. العديد من الأسئلة قمت بطرحها دفعة .. هل تأقلمت هيام مع الوضع ؟ هل اتفقتما ؟ هل هي حزينة ؟ هل تشعر بالوحدة ؟ ..

__ "تمهل يا نضال ، لم تسألني عن وضعي حتى .. " .

أجبت معتذراً :

__ "والله أنا آسف ، أشعر بالتوتر والقلق عليها .. تعرفين أنها في مرحلة حساسة .. " .

__ "كلا ، إنها بخير لا تقلق .. أظن بأنها ستحبني مع مرور الوقت .. " .

ردت أمي :

__ "حقا ! هل اتفقتما ؟ " .

__ "الأمر تجري على خير ما يرام حد الساعة .. لقد وعدتكما من قبل بأنني سأعتني بها ، لست قاسية القلب حتى أرحها أو أسبب لها الأذى .. " .

ثم أضافت :

__ "إنها فتاة رائعة ، ربما لم أستطع رؤية هذا في السابق إلا أنني أحببتها .. " .

أجبت مبتسماً :

__ "لقد قلت لك هذا سابقا ، إنها أكثر من رائعة .. " .

ابتسمت والدتي بخبت مضيئة :

_" أكثر من رائعة يا نضال .. " .

شعرت بالقليل من الخجل فاكثفت بالصمت ..

أعدت والدتي وجبة عشاء فاخرة ترحيبا بخالتي ، أمضينا كل الوقت ونحن نتبادل أطراف الحديث الطويل الذي لا ينتهي مطلقا ، انضم والدي إلينا مرحبا بقدوم خالتي ..

_" مرحبا بك .. أنار البيت وجودك .. " .

_" النور نوركم يا أخي .. كيف حالك ؟ " .

_" بخير الحمد لله وأنت ؟ " .

_" الحمد لله .. " .

ثم أضافت بمرح :

_" أدرك أنني تركت فراغا رهيبا ولكن لا بأس ، سنتعود مع الوقت .. " .

ضحكت مجاريا :

_" والله معك حق ، لقد استفقدنا وجودك هنا .. " .

نادتنا والدتي لتناول وجبة العشاء ..

_" هيا ، أنا جائع للغاية .. " .

أردف والدي :

_" أنا كذلك ، أظن بأن العشاء هذه الليلة مميز للغاية .. " .

ردت خالتي :

_" بالطبع سيكون مميزا ، فأنا هنا .. " .

أمسكت خولة من يدها قائلا :

_" هيا ، فلتلعبى لاحقا .. " .

_" فؤاد هيا ، لن يهرب التلفاز منك .. تعال .. " .

قال :

_" كلا ، لست جائعا يا أخي .. " .

رد والدي :

" هيا بني ، انهض .. " .

" حسنا ، أنا قادم يا أبي .. " .

اجتمعنا جميعنا حول مائدة العشاء ، كان ذوقه مميزا للغاية ربما لأن خالتي معنا ..

" إنه رائع يا أمي ، سلمت يداك .. " .

" بالصحة و العافية بني .. " .

غسلت خالتي وأمي الأواني المتراكمة بينما بقيت رفقة والدي في غرفة المعيشة أما فؤاد وخولة فقد نال التعب منهما بسبب الركض المتواصل لذا فقد ناما باكراً ..

" كيف هي تحضيراتك الدراسية ؟ " .

" بخير الحمد لله .. " .

" للأسف الشديد لن أكون معك في الوقت الذي تجتاز الامتحان .. " .

قلت :

" لا بأس يا أبي ، سترافقني دعواتك أنت ووالدتي أينما ذهبت .. " .

بعد لحظات انضمت كل من خالتي وأمي إلى مجلسنا ، تحدثنا عن أمور شتى .. بين الفينة و الأخرى أذكر هيام و أسأل عنها .. الشعور الذي بداخلي قوي للغاية ولا أستطيع تجاهله مهما فعلت ، إنها مهمة بالنسبة لي و يستحيل أن أتجاهل وجودها الضروري في حياتي .

بعد مضي ساعتين أو أكثر اتجه كل واحد منا إلى غرفته كي ينام بعد أداءنا لصلاة العشاء ..

استلقيت فور السرير ، لم تكن لدي أي طاقة للدارسة لذا فقد استسلمت للنوم .

وأخيرا حان اليوم الموعود فغدا ستكون الانطلاقة ، غداً سنجعل من التعب و السهر سلماً للوصول إلى القمة .. التقيت مع هيام وهي ذاهبة لشراء ملابس جديدة كما قالت .. أزعجتني كثيراً كلمة " أخي " ، صحيح أنني اعتدت عليها وكنت أحبها للغاية ولكن الأمر اليوم مختلف للغاية فمشاعري كلها قد اختلفت الآن فسبحان الله مغير القلوب .

عند عودتها كنت لا أزال في الخارج رفقة علاء ، تكلمت معها قليلاً ومن ثم دخلت إلى البيت لأتفاجأ بها وهي تناديني ..

وافقت على الذهاب معها لتناول الوجبة .. دخلت إلى البيت فكانت خالتي بانتظاري ..

_" نضال ، مرحبا بك .. " .

_" كيف حالك يا خالتي ؟ " .

_" بخير الحمد لله ، لقد حضرت الوجبة التي تحبها .. هيا فلتجلس .. " ..

كانت هيام على وشك الخروج ولكن خالتي اعترضت طريقها قائلة :

_" إلى أين ؟ " .

ردت :

_" إلى غرفتي .. " .

_" ومالذي تفعلينه في غرفتك ، هيا اجلسي .. " .

_" كلا ، لست جائعة " .

أجبت بالحاح :

_" والله لن تذهبي إلى مكان .. فلتجلسي معنا .. أتشعرين بالخجل مني ؟ " .

ردت ضاحكة :

_" كلا ، أنا أخجل منك .. يستحيل هذا .. " .

_" فلتجلسي هيا .. " .

جلست هيام معنا ، كنت أنظر إليها بين الفينة و الأخرى .. لا أدري لم ، ربما لأنها أصبحت عادة بالنسبة لي .. أنظر إليها في كل فرصة تتاح لي .

_" سلمت يداك يا خالتي ، إنه لذيذ للغاية .. " .

أيدتني هيام قائلة :

_" نعم ، إنه رائع .. شكرا لك .. " .

كانت الوجبة لذيذة للغاية ، استأذنت بالذهاب فور انتهائنا من تناولها ..

_" شكرا على هذه الوليمة .. " .

ردت خالتي :

__ " العفو ، موفق غدا يا نضال .. أتمنى أن تنجحا .. " .

__ " آمين .. " .

فور وصولي إلى البيت صعدت إلى غرفتي كي أرتاح قليلا ولكن فضول والدتي قد منعني من ذلك فقد اعترضت طريقي قائلة :

__ " كيف حال خالتك ؟ هل هي بخير ؟ هل هنالك أمر ما ولا تريدان مني معرفته ؟
.. " .

ضحكت قائلا :

__ " ومالذي سيحدث يا أمي ، لقد تناولت وجبة الغذاء معها و أتيت .. لقد كانت شهية للغاية ، لم أكن أدرك أن طبخها لذيق لهذه الدرجة .. ربما حسنته من أجل والد هيام .. " .

__ " فعلا ، بالصحة و العافية .. مالذي ستفعله الآن ؟ " .

__ " لا شيء ، سأصعد إلى غرفتي للراحة .. " .

ثم أضفت :

__ " أين والدي ؟ وفؤاد وخولة ؟ " .

__ " في الغرفة ، أتريد منه شيئا .. ؟ " .

__ " كلا ، سألت فحسب .. سأصعد إلى غرفتي الآن .. " .

التفكير في الغد يجعلني أصاب بالتوتر ، الجميع ينتظر مني الكثير .. لا أريد أن أخذلهم بعد كل هذا العناء والانتظار الطويل ، سأفعل كل ما باستطاعتي حتى أجعل والداي فخورين بي ..

في تلك الليلة لم أتعب نفسي مطلقاً ، بل رميت بثقل جسمي فوق السرير وأخذت أفكر في الامتحان وما قد تطرح من أسئلة ..

شغلني التفكير كثيرا حتى زارني النعاس و نمت حتى الصباح الباكر ..

استيقظت بتوتر شديد لم يسبق لي أن شعرت به ، حتى القهوة لم تهدىء من خوفي و قلقي الشديدين ..

__ " نضال ، لا داعي لكل هذا التوتر يا بني ، مجرد امتحان كسائر الامتحانات و سيمر .. " .

كان والدي يحاول التخفيف من التوتر الذي سيطر على يومي منذ الصباح .. هذا الشعور غريب للغاية ، دقات قلبي تسارعت كثيراً ..

أيدته والدتي قائلة :

" والدك محق يا بني ، لا تتوتر .. جعل الله لك الخير في كل خطوة تخطوها يا بني .. دعواتي معك .. " .

" شكراً ، أتوصلني في طريقك يا أبي ؟ " .

" طبعاً ، فلنذهب هيا .. " .

قبلت رأس أمي وودعتها ، صعدت إلى السيارة رفقة والدي .. ساد الصمت لبرهة ولكنه قطعه بسيف من الكلمات التشجيعية ..

" بني ، لا تتوتر .. لم أكن أظن أنك ستتوتر لهذه الدرجة .. لقد درست بجد طوال السنة الدراسية لذا ستفوق لا ريب في هذا .. أنت تلميذ مجتهد ويمكنك تجاوز هذا الامتحان بسهولة .. تفاعل بني و دع التوتر على جنب .. "

" إن شاء الله ، شكراً يا أبي .. " .

وصلنا إلى المكان الذي سيجري فيه الامتحان أخيراً .. كان مليئاً بالتلاميذ ، فهذا يحمل ورقة والآخر يشرح لزميله وغيره يقف في الزاوية منعزلاً ..

" أظن أنك ستكمل كل الوقت لذا سأتي وأخذك معي .. " .

فتحت باب السيارة مضيفاً :

" حسناً يا أبي ، نلتقي لاحقاً .. " .

أردف مبتسماً :

" وفقك الله بني .. " .

دخلت وسط الحشد الغفير باحثاً عن علاء ، بصعوبة بالغة استطعت رؤيته .. صرخت بأعلى صوتي منادياً له :

" علاء .. علاء .. " .

التفت نحوي ، فأجاب :

" لقد أتيت أخيراً .. " .

اقتربت منه بسرعة ، وبعد ذلك بدأت أبحث بعيني عن هيام .. لاشك بأنها متوترة للغاية ، إن كنت أنا هكذا فما حالها هي !!

" أتبحث عن هيام ؟ لقد رأيته قبل قليل .. " .

" أين ؟ " .

__ " كانت مع فرح ، لا أدري أين هما الآن .. " .
أمسكت بيده مضيئا :

__ " فلنبحث عنها ، أريد الاطمئنان عليها يا علاء .. " .

__ " تبدو متوترة للغاية ولكن الأمر جد طبيعي فجميعنا كذلك .. " .

بدأنا البحث عنا حتى وجدتها وسط مجموعة من الفتيات ، ناديتها باسمها بعدما اقتربت منها أكثر فأكثر ..

__ " هيام .. " .

نظرت إلي ثم ابتسمت :

__ " نضال ، لقد بحثت عنك كثيرا ولم أجذك ، أين كنت ؟ " .

__ " لقد أتيت الآن ، فلنتحدث قليلا .. " .

ترك علاء لي المساحة كي أتحدث معها على انفراد ، كنت أرغب بجعلها تدخل قاعة الامتحان بكل أريحية ، أردت أن أطرد توتري وتوترها بعيداً ..

__ " كيف حالك ؟ هل أنت خائفة ؟ " .

__ " كثيرا يا نضال ، انظر إلى يدي ، إنهما ترتجفان .. " .

__ " لا داعي للتوتر ، اعتبريه امتحانا عاديا .. سننجح بحول الله تعالى .. " .

مر الوقت وأنا أحادثها ، تخفف من قلقي و أخفف من توترها حتى رن الجرس وبدأ الجميع بالتوجه إلى القاعة التي سيتمحن فيها ..

__ " هيا ، بالتوفيق .. " .

ثم أردفت :

__ " أنا هنا بالقرب منك ، لا تتوتري .. اتفقنا ! " .

__ " حسنا ، وفقك الله يا نضال .. " .

افترقنا حينها ، فأنا ذهبت إلى علاء وهي إلى فرح لنصعد إلى القاعات المخصصة لنا .

__ " هل ارتحت الآن ؟ " .

قلت :

__ " نوعا ما ، وأنت كيف حالك ؟ " .

__ "متوتر قليلا يا نضال .. " ..

__ "سيمر ، لا تقلق .. " .

وانا على وشك الدخول إلى القاعة ، رأيت فرح وهي تركض مسرعة إلى القاعة التي تمتحن فيها هيام حاملة بيدها قارورة ماء .. لأنها بالقرب من قاعتي .. لم أفهم ما يحدث بالضبط ولكنني شعرت بالقلق حيال هذا .. توجهت بخطوات مسرعة إلى هناك ، فانصدمت بهيام وهي على الأرض بينما تجلس فرح بالقرب منها تغسل وجهها بالماء ..

انطلقت مسرعا نحوها بعد أن تفاقم الخوف بداخلي ..

__ "هيام .. هيام .. ما بها ؟ " .

أخذت قارورة الماء التي كانت تحملها فرح ، وبدأت برشها عسى أن تفتح عينيها ولكن ذلك لم يجد نفعاً ..

__ "هل أخبرت رئيس المركز بهذا ؟ " .

__ "بلا .. " .

__ "هيام ، استيقظي .. استيقظي .. " .

لم تستيقظ هيام لذا فقد استدعى الأمر أخذها إلى الطبيب الموجود في الثانوية التي نمتحن فيها ..

بعد نصف ساعة عادت إلى وعيها ، لم أتركها مطلقا بل كنت ملحا على البقاء معها لآخر لحظة ..

__ "أخيرا ، أنت بخير ؟ " .

__ "بخير ، مالذي حدث معي ؟ " .

__ "لقد أغمي عليك يا هيام .. كاد قلبي أن يتوقف من الخوف عليك .. " .

كأنها تذكرت فجأة بأننا من المفروض أن نكون داخل قاعة الامتحان ..

__ "مالذي تفعله هنا يا نضال ؟ يجب أن تكون في قاعة الامتحان .. اذهب هيا .. " .

__ "كلا ، سنذهب معا .. كيف تشعرين ؟ " .

__ "أنا بخير الحمد لله .. " .

رد الطبيب :

__ "يمكنكما الذهاب الآن لقد أصبحت بخير .. " .

ثم أضاف :

_" هل هذه أختك ؟ " .

قلت :

_" الجميع يعتبرنا كذلك .. " .

أمسكت يد هيام لأساعدها على المسير وبالفعل فقد أدخلتها إلى القاعة التي تمتحن فيها و ذهبت تاركا قلبي معها ..

طلبت مني زوجة والدي إيصال دعوتها لنضال وذلك ما فعلته بالضبط ، كانت وجبة في غاية الروعة وما زادها حلاوة وجود نضال، إنه رائع للغاية .. لا يمكنني وصفه مهما عبرت ، أنا محظوظة لأنه في حياتي .

في تلك الليلة حاولت النوم مبكرا حتى أستيقظ وأنا في حالة جيدة ولكن كمية التوتر الكبيرة لم تسمح لي بذلك ، لست الأولى التي ستجتاز هذا الامتحان ولن أكون الأخيرة ولكن الخوف عظيم للغاية وبدأ بالتفاقم داخلي تدريجيا فسبب ألما في بطني و تسارعا في دقات قلبي .

بعد المعارك الكبيرة التي حدثت داخلي استطعت وبصعوبة بالغة النوم أخيرا لأستيقظ صباحاً على صوت زوجة أبي ..

_" هيام ، استيقظي .. صباح الخير .. " .

فتحت عيني مجيبة :

_" صباح النور ، هل حل الصباح بهذه السرعة ! " .

حملت هاتفي لأرى الساعة فكان شخصاً ما قد صفعني على وجهي ، جلني أتذكر الامتحان الذي لم يبق على انطلاقه سوى ساعة ...

نهضت من الفراش بسرعة جعلت زوجة أبي تتفاجأ ..

_" ما الأمر ؟ " .

_" الامتحان ، يجب أن أجهز نفسي بسرعة .. " .

توجهت إلى دورة المياه مباشرة ، لأغسل وجهي .. ازداد التوتر كثيرا ، أتمنى أن يمر اليوم بسلام .

أوصلني والدي إلى مركز الامتحان كي أشعر بالاطمئنان أكثر ، طوال الطريق و أنا أرتعد من الخوف .. كان ذلك الإحساس غريبا للغاية فكأنني على وشك القيام بعملية جراحية نسبة فشلها أكبر من نجاحها ...

قبل نزولي من السيارة شجعني والذي كثيرا محاولا طرد التوتر عني ، كانت كلماته تقع فوقى كماء بارد منعش في عز الصيف .. لو أن أمي معي لاختلف الأمر كثيرا ولكن المعركة التي أنا فيها تستحق بذل كل الجهد ، إنه الطريق إلى المستقبل الذي أتمنى أن يكون حافلاً بالنجاحات وأرجو أن أكون فيه !

التقيت بفرح هناك ، حتى هي لم تكن أحسن مني فالتوتر قد نال منها .. أظن بأن نفس الشعور يراود الجميع فهو امتحان مصيري قد يغير حياتنا إلى الأحسن أو إلى الأسوء ..!

__ " هل أنت مستعدة يا فرح ؟ " .

__ " أظن أنني كذلك ، انتظري لحظة .. لقد نسيت أمرا ما .. " .

__ " ماهو ؟ " .

ردت وهي تنظر إلى الورقة التي تحملها :

__ " كيف أقوم بإعراب هذه الجملة ، إنها معقدة للغاية .. " .

__ " فلنجلس قليلا .. " ..

شرحت لفرح الطريقة المناسبة لإعراب تلك الجملة ومن ثم انضمنا إلى صديقات لنا ..

كان حديثنا كله حول الامتحان ، سلطنا الضوء على المادة التي ستمتحن فيها حتى أتى نضال وناداني ، ذهبت إليه حيث جرتنا الحديث إلى طرد التوتر والقلق .. فهو يحاول جعلني أطمئن و أدخل إلى القاعة دون أي توتر و أنا كذلك .. استمر الأمر على تلك الحال حتى رن الجرس معلنا بدء الامتحان ..

صعدنا إلى القاعات التي نمتحن فيها و الأمور كلها طبيعية للغاية حتى بدأت أرى كل ما حولي أسود اللون ، سيطر الظلام فجأة .. شعرت بالدوار فأمسكت يد فرح التي كانت على وشك الخروج ..

__ " هيام ، ما بك ؟ " .

__ " أشعر بالدوار يا فرح ، لا أستطيع الرؤية بوضوح .. " .

__ " يا الله ، انتظري لحظة سأحضر قارورة ماء و أخبر مدير المركز .. " .

سقطت على الأرض فور خروج فرح و لم أفتح عيني سوى و نضال أمامي ، تفاجأت للغاية من وجوده .. كأنني فقدت الذاكرة في بادئ الأمر ولكن سرعان ما تذكرت الامتحان ، مالذي يفعله نضال هنا ؟ أليس من المفترض أن يكون في قاعة الامتحان ؟

وقوفه إلى جانبي في هذه اللحظات لا ينسى مطلقاً ، في كل مرة أقع فيها أجده بالقرب مني .. لا يستطيع تركي مهما حدث معي ، إنه الشخص الذي طبيته تظهر على ملامحه و شهامته تجسدها أفعاله رغم صغر سنه ..

ساعدني نضال في الصعود إلى القاعة التي أمتحن فيها و غادر إلى قاعته هو الآخر .

كانت فترة الامتحانات صعبة للغاية ، الضغط النفسي من جهة والتوتر من جهة أخرى لولا فضل الله ورحمته لانفجرت حينها ولكن الحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه انتهينا و غادر التوتر بعيدا فالتفأول قد غرس في قلبي بعد ما قدمته ولكنه سرعان ما عاد بعد اقتراب ظهور النتيجة فلم يبق سوى يومان على إعلانها ، لم أعد أستطيع تناول الطعام ولا حتى النوم .. تمر كل ساعة بل كل دقيقة مرافقة الخوف من الفشل و التوتر الزائد ..

أتت فرح لزيارتي حتى ننسى قليلاً ، جلست رفقتها في غرفتي مساء يوم الجمعة ..

_" هل تخططين لفعل شيء ما ؟ " .

قلت :

_" كلا ، ليس هناك ما أخطط له .. فكري مشغول بالنتائج يا فرح ، لا أستطيع التفكير في شيء آخر .. " .

ردت بخبث :

_" ولا حتى نضال ؟ " .

_" والله لست في مزاج يسمح لي بسماع سخافتك ، إنه مثل أخي ألا تستطيعين هضم هذه الحقيقة ؟ " .

أمسكت كأس العصير ، أخذت رشفة منه ثم أضافت :

_" والله الإنسان العاقل لن يصدق ما تقولينه ، و أنا كما تعلمين فتاة عاقلة وذكية .. لذا فمن المستحيل أن أصدق هذه التفاهة .. أخي .. " .

ثم أردفت :

_" أخوك هو من تنجبه لك أمك لا غير ، لا توجد صداقة بين شاب وفتاة يا هذه فكيف يمكن أن تكون هنالك علاقة كالأخوة بينكما ؟ " .

ربما كلام فرح صحيح ولكن لن أبوح بما أشعر به و إلا فإنني سأندم لاحقاً ، أدرك تماماً بأنه يعتبرني أختاً له ولن أسمح لهذه المشاعر السخيفة أن تفسد ما يجمعني به .

__ " دعينا من هذا ، أخبريني .. هل أنت جادة في ما قلته لي ليلة أمس ؟ " .

__ " مالذي تتحدثين عنه ؟ " .

قلت :

__ " عن استقرارك في تركيا ، هل هذا حقيقي ؟ " .

ردت بأسف :

__ " والله أنا لا أستطيع تركك هنا والرحيل ولكن ما باليد حيلة ، إنه قرار والدي .. " .

__ " وهل حسم الأمر ؟ يعني هل القرار نهائي .. " .

__ " أجل ، سنستقر هناك يا هيام .. " .

أجبت بصوت منكسر :

__ " متى ؟ " .

__ " ربما بعد شهر .. " .

ساد الصمت قليلاً بعد اقتراب الفراق ، إنه لمن المؤسف حقاً رحيلها فهي الأخت التي لم يسعفني الحظ لتكون لي .. أشعر بأن قلبي قد انقبض والدموع بدأت تشق طريقاً نحوي لتخرج بعد العناق الحار الذي جمعنا ..

__ " كيف ستكون الحياة دونك يا فرح ، لا يمكنني تخيل ذلك مطلقاً .. لا تذهبي رجاءاً ... " .

ردت بحزن شديد :

__ " وأنا كذلك ، لا يمكنني تخيل حياتي دونك يا أختي ولكن الفراق قد اقترب ولا يمكنني البقاء هنا .. " .

ابتسمت مضيفة :

__ " لن أفلق لأن نضال هنا ، سيعتني بك في غيابي .. لا شك في هذا .. " .

__ " ليس لدي أي حظ ، كل من أحبهم يغادرونني واحداً تلو الآخر .. أخشى أن يأتي دور نضال .. " .

أمسكت بيدي قائلة :

_" كلا ، لن يحدث هذا أنا واثقة .. " .

ثم أردفت :

_" لا تنسي بأنني سأتي لزيارتك بين الفينة و الأخرى .." .

أشرقت الابتسامة على وجهي بعد سماعي كلامها الأخير فأجبت بفرح :

_" حقا ، عديني بهذا أرجوك .. " .

_" أعذك يا صديقتي ، وهل أتخلي عنك يا فتاة ؟ " .

عانقتها مضيئة :

_"لا يمكن .. " .

خبر استقرار فرح في تركيا جعلني أشعر بفراغ رهيب قبل رحيلها حتى ، أنظر إليها فتغرق عينايا في بحر الدموع المالح ..

فترة الامتحانات انتهت بعدما سلطت الضغط علينا ، ظننت بأن التوتر سيزول فور انتهائها ولكن لا .. فاقتراب ظهور النتيجة جعله يتضاعف ، العديد من الاحتمالات المزعجة تشق طريقا نحو عقلي فتجعل دقائق قلبي تتسارع و جسمي كله يصاب بالفشل ..

مر اليومان كأنهما عام ولكن النتيجة ظهرت أخيراً ، تلك اللحظات الحاسمة كادت أن توقف قلبي ، إنها من أصعب اللحظات التي تمر على طالب العلم ..

_" لا تتوتر يا نضال ، انتظر لحظة .. " .

والدي من سيرى النتيجة أولاً و يخبرنا بعد ذلك ، بقيت أنظر إلى وجهه عسى أن يبتسم فور رؤية المعدل ولكن ذلك لم يحدث بسرعة بل بمنتهى البطء ..

_" هيا يا أبي .. ماهي النتيجة ؟ " .

أمسكت والدي يدي مضيئة :

_" ستنتج بإذن الله .. ستنتج .. " .

صرخ والدي حينها بأعلى صوت :

_" لقد نجحت بمعدل ثمانية عشر فاصل خمسون .. " .

أطلقت والدي الزغاريد فرحا بهذا النجاح العظيم .. خرجت من البيت مسرعاً كي تكتمل فرحتي بسماع خبر نجاح هيام ..

قرعت الباب بقوة ، ففتحت خالتي الباب وهي تبتسم :

" مرحبا نضال ، سمعت الزغاريد مبارك نجاحك .. " .

أجبت بسرعة :

" وهيام ؟ " .

" نجحت الحمد لله .. " .

" المعدل ؟ " .

ردت بفخر :

" سبعة عشر .. " .

كانت الفرحة عظيمة للغاية غير أن هيام تذكرت والدتها فأصبح الأمر محزناً عوض أن تعلقو الزغاريد في بيتهم .

أقام والداي احتفالاً مميزاً لي حضر الجميع إليه ، الكل قدم التهاني و الهدايا ..

صديقي علاء نجح أيضاً و فرح صديقة هيام كذلك .. الحمد لله ..

أراد والدي إرسالني إلى خارج الوطن لإتمام دراستي الجامعية هناك ، كان هذا عظيماً للغاية فوالدي لديه الإمكانيات التي تجعلني أحلق بعيداً ..

بعد الاحتفال الضخم الذي أقمنه غادر الجميع منزلنا ، هناك تناقشت مع والدي عن ما سأفعله بعد الآن ..

" من الأنسب لك أن تكمل دراستك خارج الوطن يا نضال .. " .

كانت الفرصة متاحة لي للخروج والدراسة خارج الوطن ولكنني ترددت قليلاً ..

" دعني أفكر قليلاً يا أبي .. إنه لمن الصعب أن أغادر و أترك كل شيء خلفي .. "

" إنه مستقبلك يا نضال ، أنت مميز للغاية و ستكون ذا شأن عظيم مستقبلاً .. من الأفضل أن تكمل دراستك في الخارج و القرار قرارك ، لن أجبرك على شيء أنت لا تريده .. " .

" أدرك ذلك يا أبي ، سأفكر في الموضوع .. " .

شغل هذا الموضوع جل تفكيري ، استغرق الأمر أياماً .. صعب للغاية الانتقال للعيش في مكان آخر بعيد عن العائلة والأصدقاء وعن هيام !

أخبرت هيام عن إمكانية رحيلي ، لم تعارض مطلقاً ولكنني رأيت الانزعاج على وجهها البريء .. أظن أنها لا ترغب في ابتعادي عنها ، حتى أنا لا أرغب في ذلك ولكن الحلم يستحق التضحية .

قررت إتمام دراستي خارج الوطن بعد التفكير الملي الذي استغرق مني الكثير من الوقت ..

أخبرت والدي بقراري هذا فكانت فرحته عظيمة .. إنه يرغب في رؤيتي أحلق عالياً ..

كان والدي في مكتبه مساء ، جلست بالقرب منه لأناقشه حول الموضوع ..

_" هل سيستغرق الأمر كثيراً من الوقت ؟ " .

_" لابد من ذلك ، كي تجهز كل الأوراق يجب أن تكون صبوراً .. " .

_" حسناً ، لست على عجلة من أمري .. " .

ربما هذه هي المحطة التي يذهب فيها كل واحد منا في طريقه ، ربما قد وصلنا إلى طريق الفراق !

كان والدي منشغلاً للغاية لذا فقد استأذنت بالخروج مباشرة ، أمسكت بهاتفني لأرى أي جديد في الفيسبوك .. كانت هيام قد أرسلت لي رسالة محتواها ما يلي :

_" هل حقاً ستغادر ؟ " .

_" أجل ، لقد قررت وانتهى الأمر .. " .

تأخرت في الرد قليلاً ، لتجيب بعد مرور دقائق من قراءة الرسالة :

_" كما تريد .. وداعاً .. " .

لابد من أنها حزينة جداً ، أنا أعرفها جيداً وأدرك تماماً بأن فراقني يعز عليها ..

كان خبر رحيلي عن الوطن محزناً للغاية بالنسبة للجميع ، صحيح أن والدي من شجعتني على هذا ولكن الحزن شديد الوضوح على ملامحه .. أما أمي فهي تنتظر إلي وتشرّد بين الفينة والأخرى ، ربما سيكون الفراق مؤلماً للغاية ولكن المستقبل يحتم علينا التضحية و فعل كل ما باستطاعتنا للنجاح ..

التقيت بعلاء في الشارع ، تناقشت معه حول سفري فلاحظت الحزن عليه هو الآخر ..

_" أدرك ، إن الأمر صعب للغاية .. " .

قاطعني قائلاً :

_" ولم تذهب ؟ ألا توجد جامعات هنا ؟ وهيام ؟ أتعلم بقرارك هذا ؟ " .

_" بلا ، أخبرتها ولكنها لم تعترض مطلقاً .. " .

_" والله آخر شيء توقعته هذا .. " .

ثم أردف :

_" فرح كذلك ستستقر في تركيا .. " .

أجبت باندھاش :

_" ماذا ؟ تستقر في تركيا .. ؟ " .

_" ألم تخبرك هيام بهذا ؟ أظن بأن الحياة تصبح صعبة بالتدريج .. كلما كبرنا تألمنا أكثر .. " .

عانقت علاء مضيئاً :

_" ولكنني سأعود حتما ، أظن أنني سأستقر هناك ؟ " .

رد :

_" ربما ! من يدري .. ربما ستتزوج هناك وتنسى أمرنا .. " .

ضحكت من كلامه هذا ثم أجبت :

_" والله أنت مجنون ، أنا ذاهب للدراسة ليس من أجل شيء آخر و .. " .

اكتفيت بالصمت للحظات ثم أضفت :

_" وهيام ، لا يمكنني الاستغناء عنها .. سأعود و أتزوج بها .. " .

أعلنت النتائج وتفوقت كما كان متوقعاً ولكن نضال قد سبقني فقد احتل المرتبة الأولى في المنطقة ، إنه شديد الذكاء ويستحق هذا النجاح المبهر .

تمنيت حينها لو أن والدتي معنا وجدتي أيضا ولكن قدرتي على رسم جناحي الفخر لوالدي العزيز جعلتني أطير فوق السحاب ، فرحته لا تقدر بثمن .. إنه التاج الوحيد الذي بقي فوق رأسي و مسؤوليتي إسعاده .

صعقت مؤخراً بخبر رحيل نضال أيضا ، ألا تكفي فرح حتى يغادرني هو الآخر !

لن يكون فراقهما هينا ، ظننت بأنني سأجد نضال هنا فيجعلني أنسى حزني ووحدي برحيل فرح ولكن لا ، فقد قرر إتمام دراسته خارج الوطن لأصبح وحيدة في بلدي كأرجوحة هجرها كل الصغار بعد أن كبروا .

لن أسمح لأنانيتي أن تقف بيني وبين مستقبل نضال لذا فقد عقدت العزم على إخفاء
انزعاجي و حزني الشديدين ..

كانت الأيام تمضي بسرعة لذا فقد انتهزتها كونها آخر أيامي مع فرح فقد قرر
والدها الرحيل بعد أسبوع بالضبط ..

أستيقظ كل صباح كي ألتقي بها ، فتأتي إلينا تارة و أذهب إليها تارة أخرى .. أردت
أن أجعل من هذه الأيام ذكرى لا تنسى ، التقطنا الصور و لعبنا ، ضحكنا وبكينا ...
فراقك يا فرح ليس هينا .. ليس هينا ..

على طاولة العشاء لاحظ والدي حزني الشديد ..

__ " ما بك يا هيام ؟ " .

ردت زوجة أبي :

__ " فرح ستغادر بعد أسبوع وتستقر في تركيا .. لذا فهي حزينة على فراقها .. " .

قال :

__ " محزن ولكن مالذي باستطاعتك فعله يا هيام ، هذه هي الحياة ويجب تقبلها بكل
تقلباتها .. " .

أجبت بانكسار :

__ " فرح كأختي تماما ، منذ الطفولة ونحن معاً .. إنها أكثر من صديقة بالنسبة لي ..
أشعر بأنني سأصبح وحيدة بعد رحيلها .. " .

اقترب والدي مني أكثر ، أمسك بيدي ثم أضاف :

__ " تصبحين وحيدة ! ومالذي نفعله نحن هنا ؟ كوني على ثقة تامة بأنني سأكون
معك دائما ولن أتركك مهما حدث .. " .

__ " أتعدني بهذا ؟ " .

رد ضاحكا :

__ " وهل لديك شك في هذا ؟ أنا والدك ووالدتك ، صديقتك وخالتك .. جدتك وجدك
.. أنا كل شيء يا هيام .. " .

ارتيمت في حضنه بعد تسلل الدموع إلى عيني فقد أردت إخفاءها عن الأنظار ..

__ " وأنا هنا أيضاً ، لا تنسي هذا .. " .

نظرت إليها مبتسمة دون أن أنطق بحرف واحد فقد تخونني مشاعري فتسمح للدموع بالانسياب بغزارة .

إن العائلة هي الأمان .. المكان الوحيد الذي يشعر فيه المرء بالاطمئنان هو المنزل .. لو ذهبت إلى آخر العالم وزرت كل الأماكن فإنك لن تجد الراحة سوى في منزلك ..

أكملت حديثي قائلة :

_" أرغب في قضاء هذه الأيام القليلة معها ، أرجو أن لا تمنعنا ! " .

ردت زوجة أبي :

_" كلا ، ليس هنالك مانع .. " .

أيدها والدي :

_" افعلي ما يحلو لك يا هيام .. " .

فعلا قد صدق من قال " لا تحكم على الكتاب من غلافه " ..

إن حكمي السابق عنها كان خاطئاً ، لم أجد ألطف و أحن منها .. تعاملني وكأنني ابنتها ، ربما لأن الخالة آسيا قد أوصتها بي ! أو ربما لأنها لا تريد كسري أكثر ..

أكملنا وجبة العشاء ، ساعدت زوجة أبي في غسل الأواني الكثيرة ومن ثم أمسكت هاتفي كي أتحدث مع فرح .. أصبحت أكلهما في كل فرصة ، ربما لأن رحيلها قد اقترب للغاية ..

أما نضال فقد أصبحت أتجاهل وجوده كي لا يظهر الانزعاج الذي يسيطر علي ، كيف يمكنني تحمل رحيل فرح ونضال .. كيف ..

مضت الأيام كأنها يوم واحد و غادرتني فرح لأسقط في بركة من الحزن ، أصبح نضال يرسل لي الكثير من الرسائل ليواسيني ، تجاهلته مرة واثان و ثلاثة لأنهم أمام عناده في الأخير ..

_" مالأمر مالذي تريده مني ؟ " .

رد :

_" كيف ؟ لماذا تفعلين هذا معي ؟ " .

_" ليس هنالك شيء ولكنني في مزاج سيء ولا أرغب في التحدث إلى أحد .. " .

__ " أنت منزعة مني أدرك ذلك .. " .

__ " ولم أنزعج منك ؟ " .

__ " لأنني سأغادر الوطن .. " .

حاولت الإنكار ولكنني لم أستطع السكوت أكثر فانفجرت رسالة له ما يلي :

__ " ليس عدلا أن أبقى وحدي هنا ، في البداية فرح ومن ثم أنت .. لا أستطيع البقاء هنا دونكما ، ألا تفهم ذلك ؟ " .

__ " إنها رغبة والدي ، صحيح أنه ترك لي حرية الاختيار ولكنني على دراية تامة بأنه يرغب وبشدة في ذلك .. لذا فقد حققت له ما يريد .. " .

__ " ستذهب ؟ " .

__ " ولكنني سأعود يا هيام .. أعدك بهذا .. " .

قرأت الرسالة الأخيرة فانسابت الدموع دون سابق إنذار ، لم أستطع إكمال الدردشة معه أكثر لذا انسحبت بهدوء من معركة تؤلم قلبي وتجعله ينزف .

كان والدي وزوجته في غرفة المعيشة ، جلست معهما قليلا عسى أن أنسى رحيل فرح و ابتعاد نضال عني ..

__ " هيام .. " .

نظرت إلى والدي محببة :

__ " نعم يا أبي .. " .

__ " فلتتناولي المكسرات ، لا داعي لكل هذا الشرود والحزن .. سيمضي كل مر .. " .

أيدته خالة نضال :

__ " هيا ، الوقت كفيف بجعلك سعيدة .. " .

__ " سمعت أن نضال سيكمل دراسته خارج الوطن .. هذا صحيح ؟ " .

أجبت به حزن :

__ " بلا .. " .

ردت زوجة أبي :

__ " حفظه الله ورعاه ، إنه ذكي للغاية .. وهذه رغبة والده ومعه حق . " .

أجبت بانزعاج :

__ " ألا توجد جامعات هنا حتى يغادر الوطن .. ؟ " .

__ " بلا ولكن الأمر مختلف كثيرا ، هنالك فرق شاسع بيننا و بينهم يا هيام .. " .

رد والدي :

__ " وفقه الله .. على كل حال لن يبقى هناك للأبد .. سيعود بعد إتمام دراسته .. " .

أجابت :

__ " بحول الله تعالى ، سأشتاق إليه للغاية .. حبيب قلب خالته .. " .

قلت :

__ " سأذهب كي أنام .. تصبحان على خير .. " .

توجهت إلى غرفتي بعد أن غادرني بصيص الأمل المتمثل في بقاء نضال هنا ..
انكسرت وشعرت بالوحدة رغم الكم الهائل من الناس الذي يحيط بي .

ضحك علاء مجيبا :

__ " والله أنك جننت حتما ، أتظن أنها لن تقع في حب أي شخص بعد رحيلك؟ " .

__ "كفاك سخافة ، سأغادر الوطن وليس الحياة .. " .

__ " ولكنك لن تكون معها هنا ، ربما يدخل شخص غيرك حياتها و يأخذها منك !! " .

تفكير علاء منطقي للغاية ، فهي تعتبرني أخالها ولا تكن لي أي مشاعر .. فكيف سيكون الأمر بعد رحيلي ؟ لاشك أنها ستنسني و تنسى وجودي الذي أضاف إلى حياتها لونا جميلا يوماً ما ..

__ " معك حق .. أظن بأن رحيلي سيجعل من حبي لها منسيا .. " .

__ لو كانت تحبك كما تحبها لاختلف الأمر .. " .

ثم أضاف :

__ " ربما تحبك و أنت لا تعلم ؟ ربما تكن لك نفس الأحاسيس وهي تخفيها كما تفعل أنت الآن خوفاً من أنك تعتبرها أختا لك لا غير ؟ " .

__ " لديك خيال واسع يا علاء .. دعها تأتي كما كتبها الله .. لا أريد في التفكير أكثر فقد تعبت حقاً .. " .

__ " حسناً ، سنرى مالذي سيحدث .. عصافير بطني ترقزق ، فلنعد إلى البيت .. " .

__ " نلتقي غداً بإذن الله .. "

عدت إلى البيت محملاً بمختلف الأحاسيس ، ربما علاء معه حق .. ربما هيام تحبني أيضاً .. كلا ، لا يمكن ..

__ " لقد عدت يا أمي .. " .

__ " مرحباً بك بني .. " .

كان والدي في غرفة المعيشة رفقة فؤاد وخولة ..

__ " وأخيراً شرفتنا .. أين كنت ؟ " .

__ " أين سأكون يا أبي ، مع علاء كالعادة .. " .

قال :

__ " من المفترض أن تمضي هذه الأيام معنا .. " .

رد فؤاد :

__ " يقول أبي بأنك ستذهب بعيداً للدراسة .. أرجوك لا تذهب يا أخي .. " ..

أضافت خولة :

__ " خذني معك يا نضال .. " .

ضحك والدي قائلاً :

__ " ونبقى أنا ووالدتك كالبومة .. " .

دخلت والدتي وهي تقول :

__ " ما رأيك لو نذهب جميعنا مع نضال ؟ " .

رد والدي :

__ " لا يمكن ، لدي العديد من الالتزامات هنا .. " .

قلت بأسف :

__ " خسارة ، في النهاية سأكون في مفردتي .. " .

رد والدي :

__ " إن الله معك يا بني ، لا تنسى بأنه مستقبلك أنت ويجب عليك أن تكون صبوراً .. "

__ "إن شاء الله ، أنا جائع .. فلنأكل .." .

انتهيت من تناول وجبتي وتلقائياً سجلت دخولي إلى الفيسبوك حيث أرسلت عدة رسائل إلى هيام بإصرار كي تجيب و تزيح التجاهل بعيداً ..

الشيء الوحيد الذي فهمته أنها حزينة لرحيل فرح و فكرة ابتعادي عنها جعلت حزنها يتضاعف .. كم الإنسان سيء ، يؤذي الأشخاص الذين يحبونه برحيله المفاجيء .. أظن أنني سيء لدرجة لا توصف ..

في صبيحة اليوم التالي ، استيقظت على صوت منبهي كالعادة لأداء صلاة الفجر في وقتها .. أظن أن الله وفقني في حياتي بقدر حفاظي على صلاتي ..

رأيت نفسي في المنام داخل بيت هيام ، كان يعج بالناس .. أشخاص كثر داخله .. الجيران وكل عائلتها .. بحثت عن هيام فلم أجدها ، كان الحلم مزعجاً للغاية فقد سيطر التوتر على كل خلية موجودة في جسمي .. أصبح مزاجي معكراً ، شعرت بأن شيئاً سيئاً سيحدث .. إحساس قوي داخلي يخبرني بأن مكروها ما سيصيب هيام .. احفظها يا إلهي ..

ارتشفت القهوة رفقة والذي الذي قرر اصطحابي معه إلى محل تجاري جديد في الحي المجاور فقد قرر التوسع أكثر و أكثر في عمله .

__ "علينا التوسع في عملنا أكثر ، لذا قررت اصطحابك معي لترى كيف يكون العمل .." .

ضحكت مضيقاً :

__ "ولكنني لن أبقى هنا يا أبي ، سيكون عليك الاهتمام بالعمل دوني .." .

أخرج زفيراً حاراً مجيباً :

__ "لا بأس ، في لحظة أنسى أنك ستغادرنا .. مؤسف حقاً .." .

__ "أذهب معك و أرى ، أين المشكلة يا أبي .." .

ردت والدتي التي كانت منشغلة بشعر خولة :

__ "فلتذهب يا نضال ، تغير الجو قليلاً .." .

أجاب أبي :

__ "بمناسبة حديثك عن تغيير الجو ، سنذهب في رحلة جميعنا الأسبوع القادم .." .

ردت خولة :

__ "مرحاً لك يا أبي .." .

قلت :

"_ إلى أين ؟ " .

"_ مدينة الجسور المعلقة .. " .

ضحكت قائلاً :

"_ إلى قسنطينة .. " .

رد :

"_ هيا فلنذهب يا بني .. " .

خرجت رفقة والدي إلى المحل الذي يريد أن يضمه إلى عمله ولم نعد إلا بعد صلاة العصر ...

"_ مالذي يحدث هنا ؟ " .

أجبت بتوتر :

"_ لا أدري يا أبي ، عسى أن يكون خيراً .. " .

"_ صوت الصراخ قوي للغاية ، يا الله .. " .

نزلت من السيارة مسرعا متوجها صوب بيت هيام .. نعم ، صوت الصراخ ذاك ينبعث من بيت هيام ..

ركضت كالمجنون إلى المنزل ، دخلت دون استئذان .. لم أفهم مالذي يحدث هناك ..

نظرت إلى الوجوه عسى أن أجد هيام بينها ، نظرت ونظرت ولكن دون جدوى .. حاولت فهم ما يحدث .. ذلك الحلم الذي رأيته تجسد على أرض الواقع .. أشخاص كثر هنا وهيام غير موجودة ..

فجأة رأيت والدتي وهي تقترب مني ، كانت الدموع تغطي وجهها الحزين ..

بخطوات متسارعة توجهت نحوها كي أصل بسرعة وأفهم ما يجري ..

"_ أمي ، مالأمر ؟ مالذي يحدث ؟ أين هيام ؟ أين خالتي ؟ " .

البكاء المرير جعل صوتها المرتج الحزين يخرج بصعوبة بالغة ..

"_ ألا تدري ما حل فوق رؤوسنا .. لقد انتهيت تماماً .. تعبت للغاية .. " .

صرخت مجيباً :

_" أين هيام .. أين هيام يا أمي .. ؟؟؟ " .

_" أخذوها إلى المشفى بعد أن أغمي عليها .. " .

أجبت بخوف شديد :

_" ما بها هيام يا أمي ؟ أرجوك أخبريني .. " .

جاءني الرد الصادم الذي لم أتوقعه مطلقاً ..

_" لقد توفي والدها .. " .

صرخت :

_" مالذي تقولينه ؟ هذا كذب .. محال .. لا يمكنني التصديق .. لا .. لا .. " .

عانقتني و أجهشت بالبكاء ..

_" سأذهب إلى هيام .. " .

أمسكتني قائلة :

_" ابن عمها معها ، لا داعي لذهابك .. " .

ثم أضافت :

_" خالتك منكسرة يا نضال ، اذهب وواسي جراحها .. " .

نزلت الدموع من عيني بغزارة ، الحزن الذي أشعر به الآن لا يمكنني أن أصفه مطلقاً .. لقد توفي والدها ، كيف يمكنها تجاوز كل هذا .. انكسر ظهرها بل انكسرت كل عضلة موجودة في جسمها ..

_" أين خالتي ؟ " .

أشارت بسبابتها إلى ركن من أركان البيت ، كانت تجلس في الزاوية تبكي بشدة .. توجهت إليها و أنا منكسر فكيف لي أن أجبرها ؟ أنا كالغصن المنكسر الذي لا فائدة منه حالياً ..

جلست القرفصاء بالقرب منها ، كل الكلمات هربت فلم أستطع اللحاق بها وترويضها كي أطلق جمالاً تواسيها .. إن الحزن الذي أراه في عينيها لم أراه سابقاً ..

استطعت ترويض لساني لينطق بصعوبة بالغة ..

_" خالتي .. " .

انفجرت بالبكاء أكثر بعد سماع صوتي ..
 عانقتها بشدة و الدموع تخرج من سجنها بعدما كسرت قضبانها الفولاذية ..
 _ " تشجعي يا خالتي ، رحمه الله .. " .
 أنا واقع بين نارين ، التصديق و التكذيب ، بالأمس فقط رأيته و تحدثت معه .. كيف حدث هذا فجأة ، يا للموت المرة .
 في صباح اليوم التالي لم أستيقظ باكراً ، كانت الساعة تشير إلى التاسعة .. حينما دخلت المطبخ وجدت والدي هناك ، كان يكلم عمي عبد الرؤوف ..
 _ " سأتي الآن حتماً ... نلتقي في منزل والدي .. لن أتأخر .. " .
 حينما أنهى المكالمة قال :
 _ " يقول عبد الرؤوف أننا سنقوم بتقسيم الميراث اليوم لذا سأذهب إليه الآن .. " .
 قلت :
 _ " خذني معك أرجوك .. " .
 رفض قائلاً :
 _ " كلا ، في المرة القادمة يا هيام .. " .
 عانقتني مضيفاً :
 _ " أعذك أننا سنذهب إلى بيت عمك ونمكث هناك لأيام حتى تشتاقين إلى منزلنا هذا ... " .
 ردت زوجة أبي :
 _ " إن شاء الله ، متى تعود ؟ " .
 _ " لا أدري ، ربما مساءً .. " .
 ثم أردف :
 _ " اعتنيا ببعضكما البعض ، سأشتاق لكما .. " .
 أجبت بمرح :
 _ " لن تمكث هناك عما يا أبي ، ستعود في المساء حتى أن الاشتياق لن يعرف إلى قلبك سبيلاً .. " .
 ابتسم مضيفاً :

__ "معك حق .. يجب أن أذهب الآن ، دمتما سالمين .. " .

__ " دمت سالماً يا أبي .. " .

غادر والدي البيت وأنا غير مدركة بأنها المرة الأخيرة التي أراه فيها ، لو عرفت أنه لن يعود بعد خروجه لأمسكته وما تركته يذهب مطلقاً .. غادر سليماً ليعود محملاً على الأكتاف .. ذلك المنظر المخيف لا يمكنني نسيانه مطلقاً ، لقد غادرني حبيب قلبي يا الله .. أرجوك لا تختبرني بفقدانه يا ربي .. أرجوك لا تبعده عني يا الله ..

في المساء سمعت قرعاً قويا على الباب ، نهضت من الأريكة فزعة ..

__ " من هذا يا ترى ؟ " .

قلت :

__ " ربما عاد أبي ، سأفتح له .. " .

أسرعت نحو الباب لفتحه فتفاجأت بعمي عبد الرؤوف ..

__ " عمي ، هذا أنت .. " .

عانقته بحرارة فقد اشتقت له كثيراً ..

__ " تفضل بالدخول يا عمي .. " .

لم يجب مطلقاً ولكن وجهه المصفر جعلني أشعر بالخوف ..

__ " عمي ، مالا أمر ؟ مالذي حدث ؟ " .

__ " أين والدي ؟ ألم يأت معك يا عمي ؟ لقد قال بأنه سيأتي إليك .. " .

سقط على الأرض فجأة ليجهش بالبكاء ، كاد قلبي أن يتوقف حينها ، جلست القرفصاء قائلة :

__ " ما بك يا عمي ؟ مالذي حدث ؟ " .

اقتربت زوجة أبي منه بعدما اصفر وجهها هي الأخرى ..

__ " مالا أمر ؟ لماذا تبكي ؟ هل حدث مكروه لزوجي ؟ " .

اكتفى بالبكاء لوقت وجيز ليقول :

__ " كل هذا بسببي ، لو أنني لم أتصل به لما حدث كل هذا .. بسببي .. بسببي .. " .

قلت بخوف شديد :

_"مالذي حدث ... ؟" .

مسح الدمع عن عينيه و ابتلع ريقه مجيباً بصعوبة بالغة :

_"لقد توفي أخي .. " .

كان لهذه الكلمات تأثيراً قوياً على قلبي ، فكأن شخصاً ما قد طعنني ألف طعنة .. "
لقد توفي أخي " ، مالذي يقصده بهذا ؟

حاولت التحكم في أعصابي ولكنني لم أستطع ..

_"مالذي تقوله يا هذا ؟ من الذي مات ؟" .

_"والدك يا هيام .. " .

صرخت بأعلى صوت لي قائلة :

_"كلا ، إياك أن تقول هذا مجدداً .. إياك .. " .

_"سوف أتصل به الآن .. " .

ركضت بسرعة إلى غرفة المعيشة حيث كنت أضع هاتفي هناك و عدت إليهما
ليسمعاً صوت والدي ولكن الذي حدث حطمني إلى أشلاء ..

_"سوف أتصل به الآن ، أدرك تماماً بأنه في طريقه نحو البيت .. إياك أن تقول
هذا مجدداً .. إياك .. " .

_"إن هاتفه غير مغلق ، سوف يجيب في أية لحظة ، سوف يغضب منك للغاية ،
أي أخ أنت .. " .

رن هاتف والدي ، سمعت نغمته .. لم أصدق أن الهاتف في جيب عمي .. أمسكته
بقوة قائلة :

_"مالذي يفعله هاتف والدي معك ؟ مالذي فعلته ؟" .

في هذه الأثناء دخل أيهم و ألماس ، زوجة عمي و أيوب ..
نظرت إليهم قائلة :

_"مالذي يحدث هنا ؟" .

رد عمي بحزن :

_"لقد اصطدم والدك بشاحنة وهو في طريقه إلي .. اتصلت مراراً وتكراراً به
فأجاب رجل ما ليخبرني بوفاة أخي .. " .

"_ كلا .. كلا .. لا تكذب ، إياك .. أسمع أذنك الكلام السخيف الذي ينطقه لسانك .."

حاول أن يحيطني بذراعيه ويعانقني و لكنني دفعته بقوة قائلة :

"_ ابتعد عني ، أنا أريد أبي .. أحضره الآن .. "

نظرت إلى زوجة أبي المنهارة مضيفة :

"_ هل تصدقين هذا الهراء ؟ هل تصدقين ما يقول ؟ "

اقترب عمي مني ، عانقني بقوة وهو يهمس في أذني :

"_ لقد توفي أخي .. لقد توفي أخي .. "

شعرت بأن الدنيا تدور وأن الظلام قد سيطر على الأرجاء ، أغمضت عيني و لم أستيقظ بعدها إلا وأنا في المشفى و أيهم معي .

نظرت إلى المكان ثم سألت أيهم قائلة :

"_ مالذي حدث معي ؟ لم أنا هنا ؟ "

كانت عيناه حمراوتين من فرط البكاء ، أجاب بانكسار :

"_ لقد أغمي عليك يا هيام .. "

"_ و أين والدي ؟ "

أخفى وجهه بين يديه كي يتفادى الإجابة عن سؤالي الذي كررته مرارا وتكرارا ..

"_ أين والدي يا أيهم ؟ هل عاد أم ليس بعد ؟ "

نظرت إلى الطاولة الموجودة بالقرب مني ثم أضفت :

"_ أين هاتفني ؟ لابد أنه قلق بشأني الآن .. ليس من عادته أن يتركني بمفردي .. "

كان أيهم ينظر إلي بحزن شديد ، يحاول منع الدموع من السقوط ، فيرفع رأسه إلى السماء تارة ويحجبه عني تارة أخرى ..

"_ أنا لا أجد هاتفني هنا ، أظن أنه في البيت .. فلنذهب يا أيهم ، أرغب في رؤية والدي .. "

لم تستطع دموعه البقاء في سجنها أكثر لذا فقد سقطت غزيرة كأمطار الشتاء ، لأول مرة أراه في هذه الحالة ..

"_ ما بك ؟ لماذا تبكي أنت الآخر .. هل تصدق أن والدي قد مات ؟ إياك أن تفعل ذلك .. إياك يا أيهم .. " .

حاول مساعدتي في النهوض من سريري ولكنني دفعته بعيدا عني ..

"_ ابتعد عني ، لا أرغب في مساعدتك .. سوف ترى بأنك تذرف الدموع دون أي سبب .. إن والدي في البيت ينتظرني ، يجب أن أذهب إليه بسرعة .. " .

تلك الحالة التي مررت بها لا يمكن أن أتمناها لعدوي ، التصديق و التكذيب يحلقان في الأفق معاً .. الجميع يبكي سواي فأنا لا أصدق ما يقولونه مطلقاً ..

عدنا إلى البيت فكان يعج بالناس ، دخلت و أنا في حيرة من أمري .. كان الحزن يسيطر على المكان .. دخلت بسرعة و أنا أصرخ :

"_ فليخرج الجميع من هنا ، ما هذه السخافة ؟ تقتلون الإنسان وهو لا يزال على قيد الحياة .. والدي حي يرزق ، إنه في غرفته .. لقد تعب من طول الطريق .. سوف أناديه الآن و سيأتي .. " .

صرخت بأعلى صوت:

"_ أبي .. أبي .. " .

انتظرت الرد منه أو حضوره ولكن لم يحدث هذا ، الكل ينظر إلي بعين الشفقة ..

"_ أبي ، أين أنت يا أبي .. " .

ابتسمت مضيفة :

"_ أظن أنه نائم لذا لم يسمعني .. " .

بخطوات متسارعة صعدت إلى الطابق العلوي و أنا أنادي ...

"_ أبي .. أين أنت ؟ لقد عدت الآن يا أبي .. " .

"_ أبي .. أبي .. " .

بحثت في أرجاء البيت كلها ولكنني لم أجد له أي أثر ، أقبلت نحوي زوجة والدي والخالة آسيا .. نظرت إليهما قائلة :

"_ أين والدي ؟ " .

أجهشت زوجة أبي بالبكاء مجيبة :

"_ إنها حقيقة يا هيام ، لقد توفي زوجي .. " .

أمعنت النظر إلى عينيها ثم انفجرت بالبكاء .. عانقتني الخالة آسيا باكية ..

__ "كوني شجاعة يا هيام ..".

بعد لحظات أدخلوا والدي وهو جثة هامدة ، ركضت بسرعة نحوه ..

__ "أبي ، استيقظ يا أبي ..".

كل حزن العالم قد وقع على قلبي حينها ، لقد توفي أبي .. هذه الحقيقة التي حاولت إنكارها ولكنها لم تختفِ .. هربت منها مرارا وتكرارا ولكنها لحقت بي وحصرتني في زاوية الفقد المظلمة .

__ "استيقظ يا أبي أنا أرجوك .. لقد وعدتني بأنك لن تتركني مطلقاً .. أين ترحل وتتركني يا والدي .. خذني معك إن كنت مصرا على الرحيل .. متأكدة أنك اشتقت لوالدتي لذا قررت اللحاق بها ، أنا كذلك الشوق يكاد أن يقتلني ..".

عانقتني عمي بقوة قائلاً :

__ "لا تفعل هذا يا هيام ..".

مهما عبرت عن حزني الشديد وانكساري لعجزت عن ذلك .. رحيل الأب يكسر القلب والظهر وكل خلية موجودة في جسمنا .. أظن أنني انتهيت !!

دعوت الله أن يمنحني الصبر لتجاوز هذه المحنة ، كيف للمرء أن يعيش دون أب ؟ بل كيف له العيش دون والديه ؟ لقد أصبحت يتيمة الأب و الأم معاً ، كيف بإمكانني العيش بعد الآن .. كيف ..

لم أستطع تحمل الجو الحزين المملوء بالدموع لذا فقد خرجت مسرعاً ، إنه أسوأ ما قد يمر به الإنسان على الإطلاق ..

نظرت في الأرجاء بحثاً عن والدي الذي كان واقفاً مع عم هيام عبد الرؤوف .. توجهت نحوهما .. صافحته قائلاً :

__ "عظم الله أجركم ..".

رد بانكسار :

__ "شكر الله سعيكم يا بني ..".

قال والدي :

__ "والله أنا لا أصدق ، موت الفجأة صعبة للغاية ..".

رد السيد عبد الرؤوف :

__ "حتى أنا لا أصدق ، لقد انكسرت بموته .. إنه أخي وكل ما لدي .. رحمه الله ..".

تمكنت الدموع منه فانسابت كالوديان ..

"_ رحمه الله يا عبد الرؤوف ، لقد حان أجله وهذه هي الدنيا جميعنا راحل ولن يبقى أحد منا حينما تحين الساعة ... " .

كان همي الوحيد رؤية هيام ، متى ستعود يا ترى .. انتظرتها طويلاً ولم أتمكن من رؤيتها في نهاية المطاف فعندما أتت كنت قد ذهبت إلى منزلنا لغسل وجهي ..

صوت الصراخ الذي ملأ البيت فور دخول جثة والد هيام البيت كان رهيباً للغاية ، تمنيت لو كان كل ما يحدث مجرد كابوس بشع وقد ينتهي فور استيقاظي منه .. صفعت وجهي مرة و اثنان وثلاثة عسى أن أنجو من بحر الموت الذي سيطر على منزل هيام ولكن دون جدوى ، لا يمكن الهرب من الحقيقة حتى لو كانت مؤلمة ...

حتى أنا بكيت حتى احمرت عينايا ولكن لن تعيده الدموع مجددا ، إنه لمن المؤسف فقدان والدها أيضاً ..كيف لها أن تتحمل كل هذا ؟ كيف لها أن تنجو من بحر الكآبة والوحدة مرة أخرى ؟

دُفن والد هيام و دفن قلبها معه ، مع كل خطوة نخطوها نحو المقبرة كنت أشعر بأن جزءاً منها يختفي .. لا أدري لم كان إحساسي مخيفاً للغاية و كأنني سأدفنها هي بدلاً من والدها ؟

تلك اللحظات كانت قاسية للغاية ، سقيت قبره بالدموع وخرجت تاركا إياه تحت التراب المظلم وحيدا ..

دخلت خالتي في حالة من الصدمة القوية مما حتم على والدتي البقاء قريبها لأيام أما عم هيام فقد غادر بعد أسبوع من وفاة أخيه ..

مرت الأيام و هيام تتخبط في بحر الحزن وحدها .. لم تستطع خالتي مواساتها فهي منكسرة تماماً ..

في أحد الأيام أتت خالتي إلينا منفردة .. اجتمعنا جميعنا في غرفة المعيشة حيث أخبرتنا أنها لا تستطيع البقاء في ذلك المنزل أكثر ..

"_ سوف أجن يا أختي .. أنا أراه في كل زاوية من زوايا البيت .. لا أريد البقاء هناك .. " .

ردت والدتي :

"_ وهيام ؟ ألم تفكري فيها يا أختي ؟ مع من ستبقى المسكينة ؟ " .

أجابت بسرعة :

"_ أحضرها معي و تبقى معنا إن لم يكن هنالك أي مانع !! " .

توسعت عيناى فور سماعى كلامها .. هيام تعيش هنا معنا !!

رد والدى :

"_ ليس لى أى مانع ، الفتاة يتيمة ولن أسامح نفسى إن تركتها وحيدة فى ذلك المنزل .. " .

قلت :

"_ وهل ستقبل هيام بهذا ؟ " .

ردت والدى :

"_ لم يمر شهر على وفاة والدها ، كيف لنا فتح هذا الموضوع معها ؟ " .

قالت خالتى :

"_ وإن يكن ، صدقنى يا أختى .. لا أستطيع العيش هناك أكثر ، أنا أختنق .. " .

بينما نحن منهمكون فى الحديث ، أحد ما طرق الباب ..

وقفت قائلاً :

"_ سأفتحه أنا .. " .

كان الطارق عم هيام ، تفاجأت برؤيته كثيراً ...

"_ مرحباً بك .. " .

"_ لم أجد زوجة أخى فى المنزل ، أخبرتنى هيام أنها هنا .. أرغب فى التحدث معها حول موضوع مهم للغاية .. " .

قلت بتوتر :

"_ عسى أن يكون خيراً .. تفضل .. " .

سبقت العم كى أخبر الجميع عن قدومه ..

"_ مرحباً بك .. " .

رد بسرعة :

"_ لى موضوع مهم أرغب فى التحدث فيه مع زوجة أخى رحمه الله .. " .

ردت خالتى بحيرة :

"_ خيراً إن شاء الله ! " .

تنهد ثم قال :

"_ بعد وفاة أخي رحمه الله أظن بأن هيام أصبحت مسؤوليتي .. لذا فقد قررت أخذها معي .. " .

أجبت بصوت عالٍ :

"_ ماذا ؟ تذهب للعيش معكم ؟ " .

أجاب وهو ينظر إلى خالتي :

"_ أجل .. لا يمكنكما العيش بمفردكما و إن كنت ذا تفكير سليم فإنك ترغبين في العودة إلى بيت أختك أي هنا .. " .

أومأت برأسها مضيئة :

"_ بلا ولكن هيام .. " .

قاطعتها قائلاً :

"_ لقد تحدثت معها ووافقت على الذهاب معي بصعوبة .. "

ستغادر هيام إلى ولاية أخرى ؟ ليس من الممكن أن تغادر المكان الذي قضت فيه كل طفولتها ، كل ذكرياتها الجميلة متعلقة بهذا المكان .. الأمر لا يروق لي مطلقاً ..

أجبت بصوت يبدو عليه التوتر :

"_ هل وافقت حقاً ؟ " .

نظر إلي قائلاً :

"_ لم يكن إقناعها أمراً سهلاً ولكنها وافقت في آخر الأمر فأنا متأكد أن خالتك ستعود للعيش معكم هنا .. " .

قاطعتها خالتي قائلة :

"_ و إن قررت العيش هنا ، هل تظن أنني سأتركها بمفردها ؟ " .

قال :

"_ المعنى ؟ " .

ردت بتردد :

"_ تعيش معنا هنا .. " .

نظر إليها بانزعاج واضح ثم أضاف :

"_ ما دمت على قيد الحياة فإنني لن أسمح لابنة أخي الوحيدة بالعيش في بيت الناس .. " .

رد والدي :

"_ والله هيام كابنتي تماماً وزوجتي تحبها للغاية بل جميعنا نحبها ونرغب في ضمها للعائلة .. " .

رفض عمها بقاء هيام معنا بل وقرر اصطحابها للعيش معهم فوراً .. لم يعجبني القرار المفاجيء الذي لم أتوقعه لذا فقد خرجت منزعاً للغاية ..

إنه يرغب في أخذ هيام بعيداً ، لحق بي والدي ممسكاً بيدي ..

"_ إلى أين ؟ " .

أجبت بغضب :

"_ إلى هيام .. لن أسمح لها بالذهاب .. " .

"_ إنه عمها يا نضال ولا نستطيع منعه من أخذها مهما فعلنا .. وهي موافقة على ذلك ، يسر الله طريقها .. " .

"_ ولكنني لن أسمح بذهابها يا أبي ، تتركنا وتذهب .. هذا محال .. " .

رد والدي :

"_ هل نسيت أنك ذاهب بالأساس .. ستذهب للدراسة خارج الوطن .. " .

أجبت مسرعاً وبصوت واثق :

"_ كلا ، لن أذهب إلى أي مكان .. سأدرس الطب هنا .. " .

انصدم والدي من كلامي ، فقد بدت عليه علامات الاستفهام والتعجب ..

"_ مالذي تقوله يا بني ؟ " .

"_ كما سمعت ، لن أذهب إلى أي مكان .. سأكمل دراستي هنا .. " .

"_ وماذا عن كل الإجراءات التي أقوم بها ؟ " .

قلت :

"_ لا داعي لها .. لا أريد الذهاب فقد غيرت رأيي ولا رغبة لي في ذلك .. " .

رغم كمية الحيرة المسيطرة على والدي إلا أنه لم يعاتبني أو يسألني عن سبب تغيير رأيي ولكنني أظن بأنكم تعلمون السبب .

موضوع سفري قد أغلق وانتهى فقد اخترت الطب ولن أضطر لمغادرة أرض الوطن ..

في هذه الأثناء خرج عم هيام من المنزل ..

"_ هل أنت ذاهب يا عبد الرؤوف ؟ "

"_ نعم .. سأذهب لأرى إن جهزت حقائبها و أمتعتها .. "

لا أصدق ! إنه جاد في ما يقوله .. ستغادر هيام حيناً ..

قلت :

"_ هل أنت جاد ؟ "

قال مؤكداً :

"_ بالتأكيد ، لا يمكنني ترك ابنة أخي هنا .. "

بعد مضي الوقت خرجت هيام وهي تجر حقيبتين بيديها ..

قال عمها :

"_ أظن أنه حان وقت الرحيل .. "

نظر إلى والدي مضيقاً :

"_ شكراً على كل شيء .. أنا ممتن لكل ما فعلته لهيام .. "

رد والدي :

"_ لا شكر على واجب ، نحن هنا دائماً .. "

كانت هيام تنظر إلي بحزن شديد ، لا أستطيع التصديق بأنها سترحل .. اقتربت منها قائلاً :

"_ سترحلين يا هيام .. كيف بإمكانك ترك المكان الذي ترعرعنا فيه ، أرجوك لا ترحلي .. "

كانت الدموع متحجرة في عينيها ولكنها تشجعت لتقول :

"_ لا يمكنني البقاء هنا يا نضال ، إن المكان يجعلني أشعر بحزن عظيم .. أرى والدي في كل ركن من أركان البيت .. "

بدأت تشير بسبابتها إلى المنزل مضيفة :

"_ هنا يجلس والدي وهنا تقف أمي .. هناك تنام جدتي .. "

مسحت الدمعة التي نزلت قائلة :

_" كل الذين أحبهم غادروني يا نضال ، لا يمكنني البقاء في هذا المنزل بعد الآن ..
لن تستطيع جراحي الشفاء في البيت الذي فقدت فيه أغلى ما أملك .. " .

قلت :

_" ماذا عني ؟ " .

نظرت إلي قائلة :

_" أنت ستغادرني أيضا يا نضال .. " .

أجبت نافيا :

_" كلا ، لن أذهب إلى أي مكان .. سأبقى هنا .. " .

اندهشت مما قلته كثيرا فردت :

_" ألن تغادر أرض الوطن ؟ " .

قلت :

_" كلا ، لن أذهب .. سوف أكمل دراستي هنا .. " .

قاطعنا صوت عمها الذي ينادي باسمها ..

_" هيام .. هيا ابنتي .. " ..

قالت :

_" سأودع الخالة آسيا والجميع .. اهتم بنفسك جيدا يا نضال .. " .

كم أكره لحظات الوداع ، لا أستطيع تمالك نفسي حينها .. لو الأمر بيدي لما سمحت
لك بالذهاب ولكن ولسوء حظي فإنني لن أستطيع فعل أي شيء يذكر ..

رحلت هيام تاركة المكان فارغا وكأن العالم كله قد اختفى ! شعرت بالحزن الشديد
لرحيلها ..

أمسك والدي بيدي قائلاً :

_" لا بد من رحيلها يا بني ، لو كنت مكان عمها لفعلت هذا .. " .

قلت بحزن :

_" ولكنني لا أصدق أنها رحلت يا أبي .. أصبح المكان فارغا فجأة .. " .

رد والدي :

__ " فلندخل البيت الآن .. ليست نهاية العالم ستلتقي بها يوماً ما .. " .

دخلنا إلى المنزل حيث كانت خالتي تبكي لرحيل هيام أما أمي فهي غارقة في بحر من الكآبة ..

__ " ما بكما ؟ ستكون مع عمها أفضل .. لا داعي للحزن " .

ردت والدتي :

__ " افتقدتها من الآن ، لو أنها بقيت معها .. لو أنها لم ترحل .. " .

أضافت خالتي :

__ " اعتدت على وجودها في حياتي ، كم من المحزن فراقها .. " .

تركت الجميع وصعدت إلى غرفتي حيث استلقيت فوق السرير وأمسكت بهاتفني .. سجلت دخولي إلى الفيسبوك ..

كانت هيام نشطة أيضاً .. أرسلت إليها ما يلي :

__ " أنا أفتقدك من الآن .. " .

أبشع ما قد يمر به الإنسان هو فقدانه لوالديه ، كل شيء تستطيع كسبه من جديد أو كسب أفضل منه مع الوقت ولكن الأب و الأم لا أحد يستطيع أخذ مكانهما أو إعادتهما إلى الحياة مجدداً بعد وفاتهما ..

أنا أرى الدنيا بمنظار أسود ولا أظن بأنني سأتجاوز وفاة والدي مهما حاولت ، لقد دُفنت هيام القديمة المحبة للحياة بالقرب من والديها ولم تبق سوى الجثة .. أنا مجرد جسد يسير لا غير .. أنا مجرد كتلة من الأحزان و الآلام ، أنا مجرد فتاة لم تبتسم لها الحياة مطلقاً بل أشبعتني ضرباً دون لمسي ..

أتمنى أن يعود بي الزمان للوراء لأسرق لحظة من لحظات الفرح والمرح .. لأختلس ساعة من ساعات الضحك التي قضيتها رفقة أبي و أمي .. لو يعود الزمن لقضيت كل الوقت جانبهما ، فلا الدراسة ولا اللعب يشغلني عنهما .. سأخصص كل وقتي لهما عسى أن أشبع من رائحتهما ..

اتصل بي عمي عبد الرؤوف فقد قرر أخذي للعيش معهم .. لم أجد أي مبرر للبقاء هنا ، فزوجة والدي من الواضح أنها ترغب في العودة إلى بيت الخالة آسيا فأبقى أنا وحيدة سجيئة في منزل مملوء بالذكريات ..

كان من الصعب علي الموافقة وترك المنزل الذي كبرت فيه ، المنزل الذي أستنشق فيه رائحة والدتي ووالدي رحمهما الله .. حتى رائحة جدتي لا تزال عالقة هنا ، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جنانه ..

حضر عمي عبد الرؤوف في اليوم الموعود ، كان يود الحديث مع زوجة أبي ليعلّمها بالقرار الذي اتخذه .. لذا فقد توجه إلى بيت نضال للتحدث معها .

انتهزت الوقت لجمع ملابسي ومختلف أغراضي في الحقائب .. يعز علي ترك منزلي الذي فتحت عيني فيه ويعز علي ترك كل ذكرياتي هنا والرحيل ولكن الواقع يحتم علينا اتخاذ العديد من القرارات المصيرية ..

مع كل غرض أمسكه تنسكب الدموع غزيرة ، لا أستطيع ترك المكان بهذه السهولة ..

بعدما فرغت من ملابسي توجهت إلى غرفة والداي رحمهما الله ، أمسكت عطر والدي المفضل ووضعت رشّة منه وأجهشت بالبكاء .. كان ذلك عطره المفضل ، لم يستغن عنه مطلقاً فهو هديتي له في عيد مولده .. رائحته الزكية لا يمكنها أن تزول مطلقاً ، إنني مشتاقة له ولا أستطيع الاستمرار دونه ..

أخذت صورة والدتي ، قبلتها و حضنتها ..

_" سأغادر البيت يا أمي ، سأغادر بعد أن رحلتما عني .. سامحيني أرجوك فأنا لا يمكنني البقاء بمفردي هنا .. أنا أختنق في كل ثانية .. أشعر بأن هذا العالم الفسيح لا يسعني .. أرغب في اللحاق بكما .. " .

أمسكت صورة أخرى تجمعنا ثلاثتنا ثم قلت :

_" لا أصدق أنكما تحت التراب .. و أنت يا أبي ، أدرك تماماً بأنك تكره الأماكن الضيقة فكل هذا العالم لم يسعك فكيف لحفرة باردة مظلمة أن تسعك ؟ لا شك من أنك حزين للغاية ، ليتك هنا يا أبي .. ليتك هنا يا أمي .. " ..

أخذت بعض الأغراض الخاصة بوالداي كي أشعر بقربهما مني رغم الفراق الأبدي الذي حل بنا ..

خرجت من البيت بصعوبة ، مع كل خطوة أخطوها أشعر بأن نفسي ينقطع .. دموع عالقة في جحرها و صراخ قوي داخلي أسمعته في كل وقت .. تلك العاصفة القوية التي هزت قلبي وكل كياني لن ترحل إلا بعد أن تسقطني أرضاً وتنتهي أمري .

أطياف الذكريات تلاحقني ، تمسكني بقوة ولا تريد التفاوض مع قلبي وترحمه قليلاً ، مع كل خطوة أخطوها الألم الذي يسيطر على فؤادي يزداد أكثر و أكثر ...

سأفارق المكان الذي ولدت فيه ، هنا ضحكت وهناك بكيت .. هناك كنت أرسم طيوراً مهاجرة ربما قد أصبحت مثلها الآن فأنا سأهاجر تاركة خلفي كل من أحب ..

غادرت الحي الذي أعيش فيه بعد الوداع الذي فرضته الظروف علينا ، ودعت زوجة أبي والخالة آسيا .. خولة و فؤاد ، والد نضال ونضال !! .

لم يكن الأمر هينا على قلبي ، القطعة الصغيرة المتبقية منه قد بُترت بعد خطوات الفراق المتسارعة ..

طوال الطريق وأنا أبكي ، أنظر إلى المكان الذي ترعرعت فيه من زجاج السيارة .. يكاد أن يختفي عن ناظري .. يصبح أصغر حجماً و يختفي فجأة .

أرسل نضال رسالة لي :

__ " أنا أفتقدك من الآن .. " .

زاد ذلك من حزني ، كيف يمكنني الابتعاد عنه و عن الجميع ...

__ " و أنا أيضاً .. " .

أردت أن أدفن الماضي خلفي و أسير نحو مستقبل مظلم .. قد اختفى كل من أحبهم .. رحيل فرح إلى تركيا .. مغادرة نضال أرض الوطن .. وفاة والدي .. رحيلي عن الحي الذي أحبه ..

كل هذه الأحداث الجديدة جعلت هيام القديمة تفارق الحياة معلنة ولادة هيام الحزينة ، المتشائمة .

__ " هيام ، أنا معك .. العم مثل الأب يا عزيزتي ، سأعتني بك جيداً .. من الآن وصاعداً أنت ابنتي .. " .

لا يمكنني التوقف عن البكاء حتى وإن أردت ذلك .. الشعور الذي سيطر على كل حواسي قوي لدرجة كبيرة فهو خليط متجانس .. الحزن و الألم ، الفراق والخذلان .. الاكتئاب الحاد و الضعف .. الانكسار و التشتت ..

بعد مضي ساعات وصلنا إلى بيت عمي أخيراً ، خرجت زوجة عمي و ألباس لملاقاتي .. كان الجميع سعيداً لوجودي ، فقد أرادوا إحياء ما مات بداخلي ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ولا السهولة ..

__ " لقد أنت هيام .. يا مرحباً يا مرحباً ، نور البيت بوجودك .. " .

أتمنى أن يعذرني الجميع عن الصمت الدائم وقلة الكلام ، أتمنى أن يفهموا معاناة قلبي الجريح الذي اكتفى من الصدمات والمعاناة ..

أصبح بيت عمي عبد الرؤوف منزلي ولكن وجود أيهم هناك قد جعل الأمور معقدة فقد سمعت بأنه معجب بي و يرغب في التقدم لخطبتي بشكل رسمي مما جعلني أتعامل معه بسطحية و برسمية أكثر ..

بقيت على تواصل مستمر مع هيام رغم المسافة الكبيرة التي كانت بيننا ، اختارت الطب هي الأخرى ولكننا لن ندرس في نفس الجامعة لسوء الحظ .. كان التأقلم على رحيلها صعباً للغاية فالاشتياق قد أخذ حصته لأنني أفقدها في كل لحظة تمر دونها .. اعتدت على رؤيتها كل يوم ، على الحديث معها وعلى وجودها بالقرب مني .. لو أنها هنا لاختلف الأمر كثيراً لأنني وبكل تأكيد سأفعل المستحيل لإخراجها من بحر الفقد المظلم ..

كما تعلمون فإن موضوع سفري قد أغلق و انتزعت من جذوره ليس حباً في البقاء و الدراسة هنا ولكن حباً في البقاء أقرب من هيام حتى ولو أنني لا أراها كل يوم . مرت الأيام وبدأ العام الجامعي ، الانتقال من الثانوية إلى الجامعة كان بمثابة قفزة طويلة قد تقودني للوصول إلى حلمي ، الاعتياد على الأماكن الجديد كان صعباً للغاية فقد شعرت بالحنين إلى الثانوية .. فعلاء ليس هنا ولا هيام حتى .. البداية الجديدة كانت تستحق المثابرة ، فعلت المستحيل كي أحتل المرتبة الأولى فأنا أهوى المنافسة ..

بعد مرور أسبوع من الدخول الجامعي قررت الذهاب إلى الجامعة التي تدرس فيها هيام كي ألتقي بها بعد أن وافقت على اللقاء الذي سيجمعنا ... بالفعل ذهبت إلى هناك وأنا سعيد للغاية ، سأرى هيام أخيراً .. انتظرتها طويلاً ربما لأنني وصلت مبكراً .. اتصلت بها لتجيب ..

_" مرحبا نضال .. أين أنت ؟ " .

_" نعم ، أنا بالداخل قرب المكتبة .. " .

قالت :

_" أنا قادمة .. " .

أقبلت هيام مبتسمة ، كنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر ..

_" أخيراً .. كيف حالك ؟ " .

قالت :

_" بخير الحمد لله وأنت ؟ والخالة آسيا و زوجة أبي رحمه الله .. والدك ، خولة و فؤاد ؟ " .

_" الجميع بخير والحمد لله .. لقد اشتقنا إليك كثيراً .. ألا ترغبين في زيارتنا ؟ ... "

غيرت زاوية رأسها إلى السماء مضيئة :

__ "سأتي لا ريب في هذا ولكنني لست مستعدة بعد .. " .

__ "أنا أفهمك .. أخبريني ، هل أعجبتك الجامعة ؟ " .

قالت :

__ "لا بأس بها ولكنها باردة للغاية .. فلا أحد أحبه هنا .. أنت في مكان وأنا في مكان و فرح ليست هنا أيضا .. " .

ابتسمت مضيئا :

__ "المهم أنني هنا يا هيام .. " .

ردت :

__ "والله أحسن قرار اتخذته في حياتك هو بقاءك هنا ، لو أنك ذهبت لأصبحت الحياة لا طعم لها ولا لون .. " .

__ "لن أذهب إلى أي مكان .. " .

قضيت اليوم رفقة هيام لأعود إلى مكان إقامتي مساء .. كانت تلك اللحظات رائعة للغاية ، وعدتها بزيارتها مجددا في يوم آخر وهذا ما سأفعله حتما لأنني لا أطيق الابتعاد عنها لمدة طويلة ..

اتصل بي علاء ليلتها ، فأخبرته عن لقاءنا أنا وهيام .. كان فرحا من أجلي لأنه يحترم المشاعر الجياشة التي أكنها لها .

كما تعلمون فإن الأيام تمضي بسرعة ، بالأمس فقط حملت أمتعتي و اتجهت إلى الجامعة ، بالأمس فقط دخلت إلى الجامعة كطالب جديد لا يفقه شيئا فيها.. أما الآن وبعد مرور ثلاث سنوات فإنني اعتدت على وجودي فيها و حفظت كل ركن فيها .. كان بإمكانني تكوين صداقات جديدة ولكنني اكتفيت بصديق واحد يدعى هيثم .. الشيء الذي أعجبني فيه الهدوء الذي يسيطر عليه حتى ولو كان الوضع يستدعي الانفجار .. إنه ناضج و رزين ، لا تسمع منه ما لا يرضيك مطلقا لذا فقد قررت الاكتفاء به ، صديق واحد صالح خير من ألف ..

قد يتساءل معظمكم عن علاقتي بعلاء بعد هذه المدة ، لا زالت كما هي .. صحيح أننا لا نلتقي كثيراً ولكنني أشعر بعد كل لقاء يجمعنا بأنني ألقاه كل يوم ، لا يمكنني التخلي عنه مهما كانت المسافة بيننا بعيدة ومهما قلت الساعات التي نقضيها معاً فنحن ننتهز العطلة الصيفية لنقضيها مع بعضنا البعض لأنني وبكل بساطة أوؤمن بأن الصداقة الحقيقية تدوم طوال العمر .

كان العام الدراسي مرهقا للغاية لذا فقد قررت المكوث في البيت شهرا كاملا خلال العطلة الصيفية حتى أسترجع قواي التي استنزفتها في تحصيل العلم ..

__ " نضال .. نضال .. هيا فلتستيقظ يا بني ، هيام هنا وهي تريد رؤيتك .. " .

ظننت بأنه مجرد حلم جميل ، الصوت صوت والدتي ولكنني واصلت النوم دون أن أدرك بأن هيام في بيتنا بالفعل .

عادت والدتي مجددا بعد مرور عشر دقائق على حسب تقديري ..

__ " نضال ، لم تستيقظ بعد .. " .

فتحت عيني الناعستين بصعوبة فأنا لم أشبع من النوم بعد ..

__ " مالأمر يا أمي ؟ دعيني أنم قليلا بعد .. " .

أبعدت اللحاف عني مضيفة :

__ " ألا تريد رؤية هيام ؟ " .

أجبت غير مصدق :

__ " هيام ! هل هي هنا يا أمي ؟ " .

__ " نعم ، ترغب في رؤيتك قبل ذهابها فعمها ينتظرها في الخارج .. " .

لا أدري كيف قفزت من سريري ، فالاشتياق الذي يغمرني جعلني أخرج من غرفتي بسرعة غير مصدق بأنني سأجد هيام في غرفة الاستقبال ..

عدلت مشيتي فور وصولي إليها ، نظرت إليها مبتسما ثم قلت :

__ " هيام .. أنت هنا فعلاً .. " .

ردت بخجل :

__ " لقد رغبت في رؤيتكم لذا فقد أحضرني عمي إلى هنا .. " .

قلت :

__ " لا بأس .. كيف حالك ؟ " .

__ " بخير الحمد لله .. " .

كانت نظراتها مليئة بالحزن ، لا أدري لم راودني إحساس غريب جعلني أفكر في أشياء قد تجعلني أحزن مثلها أو أكثر ..

__ " ما بك يا هيام ، أنت لست على ما يرام .. " .

حاولت صنع ابتسامة زائفة ثم قالت :

_"أنا بخير يا نضال و إنما .. " .

قاطعتها والدتي قائلة :

_"و إنما أنتِ مشتاقة إلينا ، أليس كذلك ؟ " .

ردت مؤيدة إياها :

_"نعم .. هذا كل ما في الأمر ... " .

لم أقتنع بما قالته مطلقا وإنما زادت من طول جناحي الشك الذي يحلق في الأفق .. هيام ليست على ما يرام ، أنا أعرفها أكثر من أي مخلوق آخر .. أستطيع أن أشعر بحزنها حتى و إن حاولت إخفاءه عني ..

أخذني الشرود إلى عالم مملوء بالخوف من فقدانها ، إحساس غريب سيطر على كل حواسي .. أظن أنني أبالغ قليلا ولكن هنالك أمرا ما سيحدث ولن يكون جيدا بالنسبة لي ..

_"نضال ما بك ؟ أين أنت شاردا ؟ " .

كانت هيام تنظر إلي بحيرة شديدة ، حاولت أن أخفي توتري الزائد الذي لا مبرر له قائلا :

_"لم لا تبقين أكثر ؟ " .

قالت :

_"كلا ، عمي ينتظرني .. أنت من تأخر في الحضور أيها الكسول .. " .

ردت والدتي :

_"معها حق ، لقد أتيت إليك و لكنك لم تستيقظ .. " .

أمضيت دقائق مع هيام ومن ثم غادرتنا دون أن أعلم ما بها ، ذلك الإحساس الغريب لم يغادرني حتى بعد رحيلها .. كان مزعجا للغاية ..

بعد مرور ثلاث سنوات ألحت زوجة عمي على ارتباطي بابنها أيهم ، طوال تلك المدة السابقة و أنا أحاول جاهدة جعل إعجابه بي يتلاشى ولكن دون جدوى .. فأعجابه ازداد يوما بعد يوم حتى أصبح حبا !!

بعد عدة محاولات من الجميع لإقناعي قد أفلحوا ، كان قبولي للزواج منه خارج سيطرتي وفوق رغبتي .. أنا أعيش في بيتهم ولا يمكنني الرفض حتى إن أردت ذلك !!

كل مشاعر الحب التي أكنها لنضال قررت إجهاضها حتى و إن وصلت للمرحلة الأخيرة من النمو ..

أنا أحبه فعلا ، لقد تأكدت من هذا الآن .. كيف يمكنني السيطرة والقضاء على هذه الأحاسيس ؟ أظن أن أيهم هو نصيبي ولكن ماذا عن نضال ؟ لقد اعتدت على وجوده في حياتي ولكن للقدر حديث آخر ..

قررت الذهاب لزيارة عائلة نضال و إخبارهم بحفل خطوبتي الذي سنقيمه في نهاية الشهر ولكنني ابتلعت لساني فور رؤيتي لنضال لأتحدث عن كل شيء ماعدا خطوبتي.

عدت إلى بيت عمي منهارا تماما ، لاحظت ألماس حزني الشديد لذا فقد سألتني عن السبب قائلة :

__ " هل حدث أمر أزعجك هناك ؟ " .

قلت :

__ " كلا ، لم يحدث شيء .. لقد تعبت من الطريق لا غير .. " .

جلست بالقرب مني مضيفة :

__ " أيهم بانتظارك يا هيام .. لا أدري مالذي يريده ولكنه يرغب في الحديث معك حول موضوع ما .. " .

أجبت بضجر :

__ " أنا متعبة ، أخبريه بأنني سأتكلم معه لاحقاً .. " .

__ " كما تريدين .. " .

غادرت ألماس لتخبر أخاها عن تأجيل حديثنا أما أنا فقد غصت في عالم التفكير الواسع ، كان بإمكانني إخبار نضال عن ما يحدث في بيت عمي ولكن حبي له منعني من ذلك ..

لم تكن لدي طريقة أخرى للتعبير عن الرفض لذا فقد جعلت من فرح سلة لأفرغ غضبي .. اتصلت بها بسرعة .. فور ردها قلت :

__ " لم يحدث معي هذا ، لا أريده ولا أريد الزواج منه .. هل أنا مجبرة ؟ هل الزواج بالإكراه ؟ لا يمكنني التفكير في شخص غير نضال ولكن إلحاحهم الشديد جعلني أركع لطلبهم في نهاية المطاف .. " .

قاطعتني فرح قائلة :

__ " كان بإمكانك الرفض وقول " لا " ببساطة " .

قلت :

__ " أتظنين أنني مخطئة ؟ فلتضعي نفسك في مكاني يا فرح .. أنا أعيش هنا منذ وفاة والدي ، أشعر أنني ثقيلة عليهم في بعض الأحيان حتى أنني فكرت أن زواجي من أيهم .. " .

صمت خيم على المكان لأكمل بعد ذلك :

__ " هذا هو النصيب ، من يدري .. ربما نضال لا يحبني مطلقاً و أنا الغبية الوحيدة التي تفكر فيه .. " .

__ " والله أظن أنه يحبك ، تصرفاته تبرهن صحة قلبي .. " .

قلت :

__ " ألا تظنين أنه يعتبرني كأخت له ؟ " .

__ " يستحيل هذا يا هيام .. لا تكوني حمقاء لهذه الدرجة ، كيف يمكنك تجاهل الحقيقة .. " .

قلت :

__ " لا يهم يا فرح ، بات من الضروري تجاهل مشاعري والمضي قدماً .. إنه في مثل سني ، مالذي أتوقعه منه ؟ " .

تأفأفت مجيبة :

__ " فلتفعلي ما يحلو لك ولكنني أتمنى أن لا تندمي لاحقاً .. " .

فاجأني أيهم الذي وجدته فوق رأسي في حين غفلة مني ..

__ " تتعبين عندما أريد التكلم معك فقط .. " .

شعرت بالخجل منه ، أنهيت المكالمة ثم نظرت إليه قائلة :

__ " إنها فرح من اتصلت بي .. مالذي تريده ؟ " .

جلس بالقرب مني مضيفاً :

__ " كنت أتساءل بيني وبين نفسي عن موضوع الخواتم .. " .

صمت قليلاً ، تنحنح ثم أضاف :

__ " ما رأيك لو نذهب غداً معا .. " .

أدركت تماما بأنه يرغب في اختيار الخواتم معي لذا فقد سبقته قبل أن يكمل كلامه ..

_" كلا ، لا يمكنني الذهاب غدا .. لدي التزامات أخرى .. " .

_" أي التزامات يا هيام ؟ " .

قلت :

_" لا يمكنني الذهاب غدا ، دعنا نؤجل هذا ليوم آخر .. " .

لم يصبر على ذهابنا مطلقا بل وافق على رفضي وغادر غرفتي بهدوء تام ..

بعده مباشرة دخلت ألماس ..

_" مالذي قاله لك ؟ " .

_" لا شيء .. " .

ردت بالحاح :

_" كلا ، أخبريني مالذي قاله لك ؟ " .

قلت :

_" كم أنت لوحدة ، موضوع الخواتم يشغل تفكيره لذا فقد طلب مني مرافقته لاختيار الأنسب " .

أسرعت إلي قائلة :

_" خذاني معكما يا هيام .. " .

تأففت مجيبة :

_" ومن قال أنني سأذهب .. " .

لم أصارح ألماس بحبي لنضال بعد ولكنها بدأت تفهم أنني لا أريد الزواج من أخيها بعد كل التصرفات التي تبدر مني ..

_" لم لا تذهبين ؟ أصدقيني القول يا فتاة .. ألا تحبين أيهم ؟ " .

سكتت ثم أردفت :

_" والله جعلتني أشك في حبك له ، من تحب شابا تصبح كالطائر المحلق فور اقتراب خطوبتهما أما أنت فلا .. أرى أنك تذبلين بعد كل يوم يمر و كأنك تخشين من ذلك الخاتم الذي سيربط بنصرك الأيسر .. " .

قلت :

_"ليس الأمر هكذا و إنما أنا مشوشة قليلا ، أرى أنني لست جاهزة للزواج بعد .. "

أمسكت بيدي مضيئة :

_"أنا مثل أحتك يا هيام ، أصدقيني القول .. هل تحبين شخصا آخر غير أيهم .. "

أجبت بيني وبين نفسي :

_"كلا ، أنت أخت أيهم فحسب ولن تقفي معي مطلقا .. "

حملت في عيني بتمعن ثم أضافت :

_"إن كنت غير موافقة على هذا الزواج فلتتحركي قبل فوات الأوان .. قبل سماع الأهل و الأقارب و إلا فإنها ستصبح فضيحة ولن أسامحك على ذلك مطلقا .. "

فكرت في كلام ألماس ، ربما هي على حق .. ربما علي إيقاف هذه السخافة قبل انتشار الخبر و إلا فإن رفضي لن يكون له محل من الإعراب .

أثناء الليل حاول نضال فهم ما يحدث معي فقد استطاع معرفة الحزن الكبير الذي يغمرني من نظرة واحدة ..

رسالة تتلوها رسالة أخرى .. إنه يحاول اكتشاف ما أخفيه عنه .. يجب أن أتشجع و أخبره عن الأحداث التي تفرض سيطرتها خلال هذه الفترة الأخيرة ..

_"هنالك أمر ما أريد إخبارك به .. "

قرأ رسالتي فور وصولها ليجيب بسرعة :

_"أخبريني .. "

_"سوف أرتبط بأيهم .. "

كان فكري مشغولا بهيام طوال الوقت فلم أستطع منع فضولي الذي جرنني للإلاحا عليها كي تجعلني أرتشف رشفة من كأس الاطمئنان لذا فقد انتظرتها لتفتح حسابها على الفيسبوك ..

و أخيرا بعد طول انتظار قررت هيام البوح لي بما يحدث معها في منزل عمها و يا ليتها لم تفعل .. تلك الرسالة جعلت قلبي يتحطم " سوف أرتبط بأيهم " ..

أصبحت دقائق قلبي متسارعة للغاية ، كيف ترتبط به ؟

أمضيت حوالي عشر دقائق لأرد على رسالتها قائلاً :
 _ " كيف ؟ مالذي تقصدينه ؟ " .

لترد :

_ " حفل خطوبتنا في نهاية هذا الشهر ، أتيت لأدعوكم و لكنني لم أستطع .. " .
 قلت :

_ " أي خطوبة يا هيام ، لا تمزحي معي من فضلك .. " .
 ردت :

_ " والله أنا لا أمزح يا نضال .. " .

ستتزوج هيام و أنا الأحمق الذي يبني أحلامه مع فتاة تحب شابا غيره .. تأكدت في هذه اللحظة أنني لا شيء بالنسبة لها ، أنا مجرد صديق لا غير .. و أنا الذي جعلتها ملكة على عرش قلبي ، و أنا الذي أنام على صورتها و أستيقظ عليها ..
 _ " وهل أنت موافقة على هذا الزواج ! " .

_ " نعم .. " .

إنها موافقة على تحطيم قلبي، لقد أعلنت موافقتها على كسر نضال .. لم أتكلم معها بعد ذلك مطلقاً حتى أنني عزمت على نسيانها و المضي قدماً ، لن أسمح لمشاعري بأن تكسرني ، لن أسمح للحب بأن يجعلني كالمسكين الذي يقف في الزاوية .

كان خبر خطوبتها كاللعنة ، لم أستطع تصديق ما يحدث معي .. ستتزوج هيام .. هيام ستتزوج ..

حاولت الابتعاد عن كل مواقع التواصل الاجتماعي كي لا يكون لي لقاء معها أو بمعنى آخر حتى أتمكن من نسيان ما حل بي في آخر فترة ..

مرت الأيام و أنا أنتظر وصول الدعوة ولكنها لم تصل بعد !! لاحظ الجميع تغير مزاجي و ارتبائي الدائم .. تمنيت لو أنني غادرت أرض الوطن قبل أن ينكسر قلبي .. صديقة الطفولة ورفيقة الأحلام اختارت غيري ، كم الأمر محزن إنه أشبه بطعنة تأتيك في منتصف ظهرك بينما أنت تشعر بالأمان ...

على طاولة العشاء جمعنا حديث طويل حتى رن هاتف والدتي ، كاد قلبي أن يتوقف ظناً مني بأن الدعوة التي كنت أترقبها ستصل الآن ..

" إنها هيام .. خيراً إن شاء الله .. " .

رد والدي :

- __ "مالأمر يا ترى ؟ ليس من عاداتها الاتصال في هذا الوقت المتأخر .. " .
- الكل في حيرة من أمره سواي فأنا أدرك تماما بأنها ستدعونا لحفل خطوبتها كي
أدفن حبي لها في الوقت الذي تضع الخاتم فيه .
- ردت والدتي لتتفاجأ بصوت آخر غير صوت هيام :
- __ " من أنت ؟ " .
- __ " ماذا ؟ هل هي بخير ؟ متى حدث هذا ؟ " .
- __ " في أي مشفى هي ؟ " .
- الخوف شديد قلعته في قلبي ، مالذي جرى لهيام ..
- أنهت والدتي المكالمة لأسألها بسرعة :
- __ " مالذي حدث يا أمي ؟ " .
- ردت بتوتر شديد :
- __ " تقول أن هيام في المشفى ، لقد تعرضت لحادث مساء اليوم " .
- صرخت قائلاً :
- __ " مساء ؟ ويصلنا الخبر الآن .. " .
- ردت خالتي :
- __ " أريد الذهاب إليها الآن .. " .
- أجاب والدي :
- __ " لا يمكن ، المسافة بعيدة للغاية .. ننتظر حتى يحل الصباح ونذهب مباشرة " .
- أمسكت بهاتفني لأتصل بها ، قاطعتني والدتي قائلة :
- __ " الهاتف ليس معها يا نضال ، لا أدري من كلمتني أظنها ألماس .. " .
- لم أستمع لكلام والدتي بل اتصلت بها بالفعل ..
- __ " مرحبا ، أنا نضال .. أين هيام ؟ " .
- قالت :
- __ " في المشفى ، إنها متعبة للغاية ولا يمكنها التحدث في الهاتف لذا فقد طلبت مني
إخباركم بدلا منها ... " .

__ " هل أنت معها ؟ " .

قالت :

__ " بلا .. " .

أجبت مسرعا :

__ " ناوليها الهاتف ، أريد التحدث معها .. " .

سمعتها وهي تخبرها عن رغبتني في الحديث معها فوافقت دون إطالة ..

__ " نضال .. " .

كان صوتها كنسمة هواء باردة تحل في فصل الصيف الحار .. كأن كوب ماء بارد قد سكب على قلبي الذي اشتعل من الخوف ..

__ " هيام ، أنت بخير أليس كذلك ؟ مالذي حل بك ؟ كيف حدث هذا يا هيام ؟ " .

أجابت بصوت خافت بالكاد يُسمع :

__ " أنا بخير الحمد لله ، مجرد كسر لا غير .. " .

أجبت بصوت مرتج من فرط التوتر :

__ " أي كسر يا هيام ؟ " .

__ " لقد كسرت يدي .. " .

شعرت بأنها متعبة للغاية لذا لم أرغب في التكلم معها كثيرا .. ختمت المكالمة قائلا :

__ " سأتي غدا لزيارتك .. جميعنا سنأتي غدا .. اهتمي بنفسك جيدا .. " .

ردت :

__ " إن شاء الله ، سأنتظرك .. " .

__ " وداعاً .. " .

فور إنهائي المكالمة ، بدأت الأسئلة حولي .. الكل قلق عليها خصوصا خالتي ..

__ " قالت بأن يدها قد كسرت .. " ..

ثم أضفت :

__ " لكنها متعبة للغاية ، صوتها مرهق كأنها خرجت من معركة شرسة .. " .

رد والدي :

_" هي بخير هيا فلنتناول وجبة العشاء .. " .

قلت :

_" ليس لدي رغبة ، سأصعد إلى غرفتي .. " .

الذي بيني وبينها أكبر من أن يوصف ، الذي يجمعنا إحساس قوي للغاية لا يمكنني تجاهله ..

أخبرت نضال عن ارتباطي القريب بأيهم فابتعد عني ، تلك الفترة التي مررت بها كانت صعبة للغاية .. اعتيادك على وجود شخص ما في حياتك و رحيله عنك بين عشية وضحاها ليس سهلاً .. و كأن جزءاً مني قد بُتر حينها ..

انقطعت أخباره عني تاركاً فراغاً رهيباً في حياتي البائسة ..

التفكير المتواصل أرهقني للغاية لتمر الأيام و أنا أفقد رونقي ، أصبحت هزيلة الجسم نظراً لانقطاعي عن الطعام .. أشرد كثيراً في كل مرة .. فكان للشروود نهاية وخيمة انتهت بكسر ذراعي ..

أظن بأن موسم تساقط الدموع لن يغادر حياتي مطلقاً ، البكاء المتواصل أنهكني .. أبكي على وفاة والدي ، والدتي وجدتي .. أبكي على ابتعاد نضال عني ..

الجانب الإيجابي من الحادث تأجيل الخطوبة لأجل غير مسمى .. طلبت من ألماس الاتصال بالخالة آسيا و إخبارها عما حل بي فأنا بحاجة ماسة لوجودهم معي ..

ليعاود نضال الاتصال فأكلمه وكلي شوق وحنين له .. فرحت كثيراً بسماعي صوته فقد مرت أيام كثيرة على آخر محادثة دارت بيننا .. سيأتي نضال غدا لزيارتي وهذا الأمر جعلني أطيّر فوق السحاب .. حاولت إخفاء فرحتي عن ألماس كي لا تدرك المكانة الكبيرة التي يحتلها نضال في قلبي ..

_" مالذي قاله لك ؟ " .

قلت :

_" سيأتي الجميع لزيارتي غدا بإذن الله .. " .

_" أنت سعيدة الآن ؟ " .

_" نعم ، أنت تعلمين أنني أحبهم للغاية يا ألماس .. " .

أومأت برأسها الذي ملأه الشك نحوي .. ولكن أمرها لا يهمني كل ما يهمني الآن أنني سأرى نضال أخيراً ولن أسمح لأي مخلوق أن ينزع هذه السعادة مني .

انتظرت حلول الصباح بفارغ الصبر كي يأتي نضال .. صحيح أنني سعيدة لحضور الخالة آسيا وزوجة والدي رحمه الله ولكن فرحتي بنضال أكبر .

حل الصباح أخيراً بعد تفكير طويل ليدخل نضال أولاً ..

__ " هيام ... " .

نظرت نحوه بفرح :

__ " مرحبا .. " .

__ " كيف حالك ؟ والله كاد قلبي أن يتوقف .. " .

كانت ألماس معي هي الأخرى ، التفتت نحوه كي تحييه ثم خرجت ..

__ " كيف حال يدك ؟ " .

__ " بخير الحمد لله .. أين الخالة آسيا وزوجة أبي ..؟ " .

قال مبتسماً :

__ " إنهما قادمتان ، لقد سعدت مسرعا كي تتسنى لي رؤيتك والحديث معك بأريحية ولو لثوان .. " .

ابتسمت مجيبة :

__ " أيها الشقي .. كيف حالك أنت ، لم انقطعت عني ؟ لا تحدثني مطلقا ، مالا أمر ؟ " .

أجاب بتردد :

__ " يجب أن أعود على غيابك من الآن ، أظنن أن زوجك المستقبلي سيسمح لي بالحديث معك ؟ " .

شعرت بأن الدماء قد احتقنت في وجهي ، زوجي المستقبلي !

أظن بأنه لا يعترض على زواجي من أيهم ، أنا حمقاء فعلاً .. أصدق تفاهات فرح .. إنه يعتبرني كأخت له لا غير و أنا التي ظننت لوهلة أن مشاعره نحوي قد تحمل الحب في طياتها .

دخلت الخالة آسيا وزوجة والدتي الغرفة ، مكثوا حوالي الساعة وغادروا ..

لقد كان الاشتياق كبيراً للغاية حتى أن تلك الساعة لم تكن كافية مطلقاً ، شعرت بأنها دقيقة لا غير .. أنظر إلى عيني نضال عسى أن أفهم ما يدور داخله .. عسى أن أتأكد من وجود الحب أو عدمه ولكن دون جدوى .. بقيت الحيرة معي ولمدة طويلة

للغاية ، أحاول أن أجد الإجابة عن السؤال الوحيد الذي يسبح في رأسي " هل نضال
يكن لي نفس المشاعر و هل سأرتبط مع أيهم بشكل رسمي ؟ " ...
ستكون الأيام القادمة كفيلة للإجابة عن كل الأسئلة التي تراودكم ...
انتظرونا في الجزء الثاني من رواية موسم تساقط الدموع .

موسم

موسم تساقط الدموع

الجزء الأول

لقد تغيرت ملامحها كثيرا فقد أتعبها
المرض رأيتها جالسة فوق كرسي متحرك
ظننت في بادئ الأمر أنه مؤقت
ولكنني اكتشفت أن قد ماها لا يستطيعان
حمل جسدها المرهق

بوزادة سهام

تصميم

زهرة عرفة